من بلاغة النبوة

(حديث دعاء السفر نموذجاً)

إعداد
الدكتور/ أحمد فريد أبوسالم
مدرس البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية بالمنصورة
فرع جامعة الأزهر

الحمد لله رب العالمين، خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على أعظم البلغاء، وأبلغ الفصحاء، أفصح من نطق بالضاد، بيد أنه من قريش، سيِّد الأولين والآخرين، سيدنا محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، وأتباعه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد .....

فإن البيان النبوي فضله على الإنسانية عظيم ، وأثره على الأمة الإسلامية كبير ، ولا غرابة في ذلك، فهو بيان صاحب اللواء المعقود، والحوض المورود، والمقام المحمود، والشفاعة العظمى في اليوم المشهود، الذي لا ﴿ يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾[النجم/٣،٤].إنه قبس من القرآن، وشعاع شمسه الساطع.

إن بيان الرسول ﷺ لا يعلوه أي بيان سوى بيان الدستور الخالد، القرآن الكريم، إن بلاغته ﷺ "هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تُصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يُتكلف لها وهي على السهولة بعيدةٌ ممنوعة.ألفاظ النبوّة يعمرها قلبٌ متصلٌ بجلال خالقه، ويصقِلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي، فإنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل، فقد كانت هي من دليله، مُحكمَة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفضولة، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبضُ قلب يتكلم، وإنما هي في سُموها وإجادتها مظهرٌ من خواطره ﷺ.

إن خرجت في الموعظة قلتَ أنينٌ من فؤاد مقروح، وإن راعت بالحكمة قلتَ صورة بشرية من الروح في منزع يلين فينفر بالدموع، ويشتد فينزو بالدماء، وإذا أراك القرآنُ أنه خطاب السماء للأرض، أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء".[1]

وبرغم علو مكانة تلك البلاغة النبوية، فإننا نجد أنها لم تحظ باهتمام كثير من العلماء والدارسين؛ وذلك لأنهم وجهوا وجهتهم نحو البلاغة القرآنية، وحُقَّ لهم ذلك، ولكنني أرى أنه مع هذا الاهتمام بالبلاغة القرآنية، فلا يليق بنا التقصير في شأن البلاغة النبوية تلك التي تلي في سموها، وارتفاع قدرها بلاغة القرآن الكريم.

١ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٢٧٩ لمصطفى صادق الرافعي.ط: دار الفكر العربي ـ بيروت.ط: الثامنة.

هذا، ولما كان الأمر كذلك وجهت وجهي نحو دراسة بلاغة النبوة، من أجل الوقوف على تفوقها، ومعرفة الأسباب التي تقف وراء ذلك، وجاء إدراك ذلك . ولله الحمد والمنة . من خلال دراسة تحليلية تطبيقية لقبس نبوي شريف ألا وهو"**حديث دعاء السفر**"، وجاء اختيار هذا الحديث ليكون محلاً لدراسة البلاغة النبوية التطبيقية؛ للأسباب الآتية:

أولاً: أنه يمثِّل إحدى حالتي الإنسان في الحياة، وهي حالة الترحال والسفر، المقابلة لحالة الحِلِّ والإقامة.

ثانياً: أنه نموذج يكشف عن بلاغة الرسول . ﷺ من ناحية ألفاظه، ومعانيه، وأفكاره، وأسلوبه.

ثالثاً: التنبيه على أن رحلة السفر قد تكون مظنة للانشغال والغفلة عن الطاعة.

رابعاً: الإشارة إلى أنّ بلاغته . ﷺ . لا تتفاوت، فهو في كل ما نطق به في قمَّة البلاغة.

خامساً: أنَّ هذا الدعاء قد يذكره الإنسان، بل قد يحفظه دون أن يلتفت إلى وجه البلاغة فيه؛ نتيجة لكثرة تكراره.

لهذه الأسباب وغيرها، كان اختيار"**حديث دعاء السفر**" لتلك الدراسة، وجاء البحث فيه بعنوان" **من بلاغة النبوة . حديث دعاء السفر نموذجاً**".

هذا، وقد اقتضت طبيعة معالجة هذا الموضوع أن يأتي في: مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، ثم فهرسين أحدهما: للمراجع والمصادر، وآخر: للموضوعات.

أما المقدمة: ففيها سبب اختيار البحث، وخطة السير فيه بالتفصيل.

وأما المبحث الأول :فهو بعنوان:" **الجانب النظري**"، ويتناول المطالب الآتية:

المطلب الأول: المقصود بالبيان النبوي.

الثاني: فصاحة الرسول ﷺ .

الثالث: بلاغة النبي . ﷺ . وأسباب تفوقها.

وأما المبحث الثاني: فجاء بعنوان:"**الجانب التطبيقي**"، ويحتوي على:

عرض نص حديث دعاء السفر، وتخريجه، ثم دراسته وتحليله، والإشارة إلى أنه يدور حول ثلاثة محاور، هي:

المحور الأول: طلب الإعانة من الله عز وجل على التوفيق في الطاعة.

الثاني: طلب الإعانة من الله عز وجل على دفع مشاق السفر وآلامه.

الثالث: ملازمة العبد للتوبة في جميع أحواله.

وأما الخاتمة، فكانت تسجيلاً لأهم خصائص البيان النبوي، التي جعلته يحتل ذرا البيان البشري، والتي توصل إليها البحث، من خلال الحديث محل الدراسة.

وبعد، فهذه محاولة تحليلية لقبس من نور النبوة، فإن كنت قد وفقت في دراسته وتحليله فذلك فضل من الله ونعمة، وإن كانت الأخرى، فحسبي أنني بذلت جهدي.

والله تعالى أسأل أن يفتح قلوبنا لفهم سنَّة حبيبه، وأن يعيننا على العمل بما جاء فيها، وأن يلهمنا الصواب والرشاد، والتوفيق والسداد، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وصلى الله وسلم على نبيه الأمين، والحمد لله رب العالمين.

الباحث

د. أحمد فريد أبو سالم

الإهـــــداء

إلى محبي بيان الحبيب...

الـذي " كلمـا زدتـه فكـراً زادك معـنى، وتفسـيره قريـب، قريـب كـالروح في جسـمها البشري، ولكنه بعيد، بعيد كالروح في سرها الإلهي، فهو معك على قدر ما أنت معه، إن وقفتَ على حدٍّ وقف، وإن مددتَ مدَّ، وما أديت به تأدَّى".

مصطفى صادق الرافعي."وحي القلم٣/٩".

والذي"كأنه تنزيلٌ من التنزيل، أو قبسٌ من نور الذكر الحكيم".

سعد زغلول. نقلاً عن"وحي القلم٣/٣".

وإلى أصـحاب نـبيِّ الفصـاحة، وأتباعـه الغـرّ الميـامين... وإلى سـالكي طريـق سـيِّد المرسلين... وغيرهم.

أهدي هذا العمل المتواضع

الـباحـث

المبحث الأول: الجانب النظري

ويحتوي على عدة مطالب، هي:

ـ المطلب الأول: المقصود بالبيان النبوي.

ـ الثاني: فصاحة الرسول ﷺ.

ـ الثالث: بلاغة النبي ـ ﷺ ـ وأسباب تفوقها.

في بداية الحديث عن هذا المبحث ينبغي أن أشير هنا إلى أن هذا الجانب النظري سنوجز الكلام عنه؛ لأنه سبق في كتب أهل العلم تفصيله، والذي يعنينا بالدرجة الأولى هنا إنما هو الجانب التطبيقي،وإليك الحديث عن أهم النقاط التي يتناولها هذا الجانب بإيجاز، وهي:

المطلب الأول: المقصود بالبيان النبوي.

إن البيان النبوي له في القلوب مكانة عظيمة، وفي النفوس منزلة سامية، ولِمَ لا وهو الذي خرج من في سيد البلغاء . وهو الذي لا ﴿ يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣، ٤] . وقام بفعله أعظم الفصحاء، وأقرّ عليه أصحابه الأصفياء، ووصفه به صفوة الأمناء؟ إذ إن" **الحديث النبوي**" في اصطلاح المحدثين هو: كل ما صحت نسبته إلى رسول الله . ﷺ ـ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلقية أو خُلقية، سواء كان قبل البعثة أو بعدها. والأصوليون يحصرون هذا التعريف على ما كان بعد البعثة لا غير؛ لأن الهدف من الحديث هو العمل بمقتضاه، ولا يتحقق هذا إلا ما كان بعد البعثة، وليس ما كان قبلها.[١]

ومن المصطلحات المرادفة للحديث النبوي: مصطلح "**السنة**" وهي في اصطلاح الأصوليين تعني: كل ما أضيف إلى النبي . ﷺ . من قول أو فعل أو تقرير. ومن ثَمَّ فهي مرادفة للحديث عند علماء الأصول، وهي أعم منه عند من خص الحديث: بما أضيف إلى النبي . عليه الصلاة و السلام . من قول فقط.[٢]

وقد ورد هذا المصطلح في بعض الأحاديث كقوله . ﷺ" خلَّفتُ فيكُم شَيئيْن لنْ تَضِلُّوا بعدَهُما: كتاب الله وسُنَّتي، ولن يفترقاَ حتى يرداَ عليَّ الحوض ".[٣]

وإليك بعض الأحاديث التي توضح مفهوم الحديث النبوي، فمن أحاديث القول: قول رسول الله . ﷺ ـ" اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ".[١]

---

١ ـ ينظر: الكليات ـ فصل الحاء٥٧٣/١ لأبي البقاء الكفومي. تحقيق/ عدنان درويش ،ومحمد المصري.ط: مؤسسة الرسالة – بيروت.ط:١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.وانظر: السنة ومكانتها في التشريع ص٥٩ د/ مصطفى السباعي.ط: الأولى، وتوجيه النظر إلى أصول الأثر١/١ لطاهر الجزائري الدمشقي. تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة.ط: مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب ـ سورية.ط: الأولى: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢ ـ ينظر: توجيه النظر إلى أصول الأثر٤٠/١.

٣ ـ الحديث: رواه الدار قطني في سننه٢٤٥/٤ برقم(١٤٩) باب: في المرأة تقتل إذا ارتدت، ورواه البيهقي في السنن الكبرى١١٤/١٠ برقم(٢٠١٢٤) باب: ما يقضي به القاضي.

ومن أحاديث الفعل: قوله ـ ﷺ ـ " وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي ".[٢]

ومن أحاديث التقرير: ما روي أن خالدَ بن الوليد، دخلَ مع رسولِ الله ﷺ ـ على ميمونة بنت الحارث ـ وهي خالته ـ فَقُدِّم إلى رسولِ الله ﷺ لحم ضبٍّ، وكان رسولُ الله ﷺ لا يأكل شيئاً حتى يعلم ما هو فقال بعض النسوة: ألا تُخبرنَ رسول الله ـ ﷺ ـ ما يأكل، فأخبرته أنه لحمُ ضبٍّ؛ فتركَه، قال خالد: سألتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أحرامٌ هو؟ قال: لا، ولكنه طعامٌ ليس في أرضِ قومِي فأجدني أعَافّه. قال خالد: فاجتررتُهُ إليَّ فأكلتُه ورسول الله ـ ﷺ ـ ينظر".[٣]

ومن أحاديث الوصف: ما روي أن أَنس بن مالك وصف النبي – ﷺ – فقال: كَانَ رَبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلاَ بِالْقَصِيرِ، أَزْهَرَ اللَّوْنِ..." [٤]الحديث.

هذا، وإن الحديث النبوي وإن كان قد تنوعت ألوانه، وتعددت مجالاته ما بين: القول والفعل والتقرير والوصف، فإن البيان إنما يتعلق بجانب القول فقط؛ إذ فيه تبرز البلاغة العالية، والبراعة الفائقة، وأساليبه تجسد الأفكار الرائقة، والمعاني الخالدة.

١ ـ الحديث:رواه الترمذي٣٥٥/٤ برقم(١٩٨٧) باب ما جاء في معاشرة الناس، وهو في رياض الصالحين باب المراقبة برقم(٦٢).
٢ ـ الحديث: رواه البخاري٢٢٦/١ برقم(٦٠٥) باب الآذان للمسافر.
٣ ـ الحديث: رواه النسائي في سننه١٩٨/٧ برقم(٤٣١٧) وقال عنه الألباني: حديث صحيح.
٤ ـ الحديث: رواه البخاري٢٩١/٢ باب صفة النبي برقم(٣٥٤٧)، ورواه الترمذي ٢٣٣/٤ برقم(١٧٥٤).وأزهر اللون:أي: أبيض مشرب بحمرة.وانظر: كتاب الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية للإمام الترمذي ففيه كثير من صفاته وشمائله ﷺ.

المطلب الثاني: فصاحة الرسول ﷺ .

إن ارتقاء فصاحته . ﷺ . وصفاء تعبيره، قد لفت أنظار أصحابه . رضي الله عنهم . حتى قالوا له:" ما رأينا الذي هو أفصح منك، فقال: وما يمنعني . من ذلك . وإنما أنزل القرآن بلساني، لسان عربي مبين"[1].وقال له أيضاً أبو بكر . رضي الله عنه . لقد طفتُ في قبائل العرب، وسمعت فصحاءهم، فما وجدت أفصح منك، فمن أدبك(أي علمك)؟ فقال . ﷺ .:" أدَّبني ربي فأحسنَ تأديبي"، والأدب هنا ليس المقصود به المعنى الخلقي .كما ذكره بعض الشراح . وإنما المراد منه المعنى الأدبي بدليل قوله" فما رأيت أفصح منك"، والفصاحة هنا تعني: فصاحة المنطق بشقيه من اللفظ والمعنى، وفصاحته . ﷺ . هي فصاحة العاقل المكين الذي أرشده القرآن، وأفرغ عليه آلاف المعاني، وفتح أمامه أبواب الإقناع والسداد، فإذا تكلم، فعن رصيد ضخم من التفكير الثاقب، والمعرفة الغزيرة، والدراية الكونية والتاريخية والفقهية، مما بسطه محكم الذكر الحميد[2].

كما لفتت هذه الفصاحة البارعة الفذة أنظار كثير من العلماء والدارسين، فتوقفوا أمامها، وأخذوا في الكشف عنها، وجاء على رأس هؤلاء: شيخ الأدباء الإمام الجاحظ، الذي أشاد بهذه الفصاحة النبوية أيمَّا إشادة، وبلغ من آثار وصفه لتلك الفصاحة أن تناقلتها عنه أقلام جل من كتبوا عن البيان النبوي، ولنستمع إليه وهو يحدثنا عن شأن تلك الفصاحة بأسلوبه الأدبي البليغ الممتع يقول: واصفاً كلامه . ﷺ . بأنه"هو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلَّ عن الصَّنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى، قل: يا محمد ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعير، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق؟!

وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشَّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حُسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة، ولا زلَّت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يَقم له خَصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبذُّ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات

---

١ ـ الشفا١/٨٠.

٢ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٢٩٣، وانظر: البيان النبوي ص٦٨.وانظر: أيضاً كلام علىّ ـ كرم الله وجهه ـ له حين سمعه يخاطب وفدَ بني نهد: يا رسول الله: نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره! فقال ـ ﷺ ـ :" أدبني ربي فأحسن تأديبي". إعجاز القرآن ص٣١٧.

الخَصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْج إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل الموارَبة، ولا يهمِز ولا يلمِز، ولا يُبطئ ولا يَعجل، ولا يُسهب ولا يَحصَر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه . ﷺ .كثيرا".[1]

لقد كشف . رحمه الله . في هذا الكلام الدقيق عن فصاحة سيد الأولين والآخرين، وجمع كل ما يندرج تحتها، وما يتعلق بها من: وصف للألفاظ، والمعاني، والأفكار، والأداء، والأسلوب.

وهذا عالم آخر يصف لنا بعضاً من جمال فصاحته . ﷺ . ونصاعة بيانه، وبراعة حديثه. إنه القاضي عياض صاحب كتاب(الشفا بتعريف حقوق المصطفى)، والذي يقول فيه: وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يُجهل: سلاسَةَ طبع، وبراعةَ مَنزع، وإيجازَ مقطع، ونصاعةَ لفظٍ، وجزالةَ قولٍ، وصحةَ معانٍ، وقلةَ تكلفٍ. أُوتِىَ جوامع الكَلِمِ، وخُصّ ببدائع الحِكم، وعُلِّم ألسنةَ العرب، فكان يُخاطب كل أمة منها بلسانها، ويُحاورها بلغتها، ويُباريها في مَنزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله. مَن تأمل حديثَه وسِيَرَه؛ عَلِمَ ذلك وتحقَّقَه. وكلامُه المعتاد، وفصاحتُه المعلومة، وجوامع كلمه، وحِكمه المأثورة، لا يُوازَى فصاحة، ولا يُبارَى بلاغةً. وجمع في نشأته بين قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشرٌ[2].

وهناك علماء كثرٌ غير هذين العالِمَين، ممن سجلوا لنا جوانب عديدة مضيئة من هذه الفصاحة البشرية لأفصح من نطق بالضاد ﷺ ، من أمثال: ابن رشيق ، والزمخشري،

---

١ ـ البيان والتبيين١٧/٢ للجاحظ.تحقيق/ عبد السلام هارون ط:الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ مصر.ط: ٢٠٠٣م، وانظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى الرافعي ص٢٨٢، والبيان النبوي للدكتور/ البيومي ص٣١٠،والحديث النبوي للدكتور/ الصباغ ص٤٧، وبلاغة الرسول للدكتور/ علي العماري ص٢٠.ومعنى التقعير:أي الذي يتكلم بأقصى قعر فمه.والفَلَج:الفوز والظفر.الخلابة:أي المخادعة في الكلام.والهمز: العيب في الغيبة، واللمز: العيب في الحضرة. والحصر: العيّ في الكلام.والفحوى:أي المعنى.

٢ ـ ينظر: الشفا٧٠/١ ـ ٨٠ بتصرف.ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت.ومعنى:السلاسة: أي السهولة. والبراعة: مصدر برع الرجل بضم الراء وفتحها أي: فاق أقرانه في العلم وغيره.والمنزع:أي المأخذ. والمقطع: أي تمام= = كلام. والنصاعة:أي الخلوص. والجزالة: أي القوّي، وهي خلاف الركاكة. والمباراة:أي المعارضة، يقال: فلان يبارى فلانا: أي يعارضه. يُوازَى: أي يماثل ويقابل.راجع:مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء ص٧٠ـ٨٠. لأحمد الشمني. وهو مطبوع مع كتاب الشفا.

والإمام العلوي، ومصطفى صادق الرافعي، وعباس العقاد، وأحمد حسن الزيات، وغيرهم كثير.

المطلب الثالث: بلاغة النبي - ﷺ - وأسباب تفوقها.

إن من الأمور التي أصبحت من المسلَّمات هي: تفوق البيان النبوي وعلو مكانته، وأنه قد حاذى قصب السبق في البلاغة والفصاحة والروعة، وأنه لا يعلو عليه أي بيان سوى بيان القرآن الكريم؛ إذ إنه يأتي في المرتبة التالية للقرآن الكريم؛ لأنه في الحقيقة ما هو إلا تطبيق عمليٌّ لما جاء فيه، وبيان شافٍ لما ورد فيه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]، ومما يُعلي من قدر هذا البيان أنه من ناحية أخرى يعدّ المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي.

إن اعتلاء البيان النبوي القمة عموماً في شتى المجالات، وخصوصاً في مجال البلاغة والفصاحة، أمر لا يحتاج إلى دليل؛ نظراً لوضوحه وضوح الشمس في كبد السماء. وكما قال المتنبي: [1]

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وذلك لأن حديثه ﷺ هو: "السبيل الواضح، والنجم اللائح، والقائد الناصح، والعلم المنصوب، والأَمَمُ المقصود، والغايةُ في البيان؛ والنهاية في البرهان، والمِفْزَعُ عند الخصام، والقدوة لجميع الأنام"[2].

كما أن جمال البلاغة النبوية، وعذوبة رونقها، وجلال روعتها، تجلَّى فيها كل ذلك وغيره؛ لأنها"من صنع الله، وما كان من صنع الله، تضيق موازين الإنسان عن وزنه، وتقصر مقاييسه عن قياسه، فنحن لا ندرك كنهه، وإنما ندرك أثره، ونحن لا نعلم إنشاءه، وإنما نعلم خبره، وهل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة؟ وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة؟ وهل يجد في نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلالة والروعة؟ إن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية، وإذا كان كلام الله (كتابَ)

---

١ - ديوانه ص٢٢٠.ط: دار صادر - بيروت.ط: الثانية: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٢ – البصائر والذخائر ٧/١ لأبي حيان التوحيدي.تحقيق/أحمد أمين، والسيد صقر.ط:لجنة التأليف والترجمة والنشر.ط: الأولى:١٣٧٣هـ -١٩٥٣م. ومعنى: الأمم: الأمر البين.

البيان المعجز، فإن كلام الرسول ـ ﷺ ـ (سنةُ) هذا البيان، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول، فإن البلاغة صفة محمد وحده".[1]

هذا، ولقد كان ﷺ أفصح العرب بياناً، وأبلغهم مقالاً، وكان وراء ذلك أسباب كثيرة، وعوامل عديدة، أهمها: [2]

أولاً: التدبير الإلهي لأن يكون محمد ـ ﷺ ـ أبلغ العرب، ودليل ذلك قوله تعالى:﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء: ١١٣]. فقد امتن الله على رسوله بأن أنزل عليه الكتاب والحكمة، وبأن علمه علوماً لم يكن يدري عنها شيئاً، والله ـ سبحانه ـ إنما يمتن بجلائل النعم، فلا شك أن مما تدل عليه هذه الآية أنَّ الله ـ عز وجل ـ ألهم رسوله روائع البيان، وخصه بالمثل الأعلى في فصاحة اللسان، وما ذلك إلا لأنه أرسله إلى قوم يقدِّسون البيان، فجعله مثالاً يحتذى فيه،ومن ثَمَّ ميزه على أقرانه بفصاحة اللسان، وقوة البيان. وهذا السبب يُعدُّ على رأس الأسباب التي كانت وراء تفوق بلاغته ـ ﷺ ـ بل هو السر الأعظم فيها.

ثانياً: نشأته اللغوية التي نشأها ـ ﷺ ـ فقد كان لها تأثيرها البيّن في بلاغته، فهو من قريش ـ وما أدراك ما قريش في ذروة بلاغتها، وقوة فصاحتها؟ ـ، وأخواله من بني زهرة، واسترضع في بني سعد بن بكر، وخالط في حياته بطون قريش والأنصار، فكانت هذه النشأة مراناً حيًّا، بأحسن الأساليب، وأفصح اللهجات في العرب قاطبة.

لقد ورث ـ ﷺ ـ البلاغة فيما ورث من سمات آبائه وأجداده، وقد مكَّن الله ـ عز وجل ـ له من أفانين البلاغة والسداد والإفحام بما استطاع أن يبهر به قوماً قيل: عن بلاغتهم المبدعة:"وكل شيء للعرب فإنما هو بديهةٌ وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناةٌ ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو ـ أي: العربي ـ أن يصرف وَهْمَه إلى الكلام، وإلى رجَز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدُو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراعٍ أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وَهْمَه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيِّده على نفسه، ولا يدرُسه أحدًا من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا

١ ـ وحي الرسالة المجلد ١١٢/٣لأحمد حسن الزيات.ط: مكتبة نهضة مصر.ط: الثانية: ١٣٧٥هـ ـ١٩٥٦م.
٢ ـ راجع: تفصيل هذه الأسباب باستفاضة في: بلاغة الرسول ص٧ـ٩د/ علي محمد العماري. ط: دار الأنصار. والحديث النبوي ص٤٨، ٤٩د/ محمد لطفي الصباغ.ط: المكتب الإسلامي.ط: السابعة.والبيان النبوي ص٥٥، ٧٠، ٢٧٨د/ محمد رجب البيومي.ط: الأولى.

يتكلَّفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهرَ وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحدٍ في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفُّظ، ويحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام مَن كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما عَلِقَ بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفُّظ ولا طلب، وإنَّ شيئاً من الذي في أيدينا جزء منه، لَبالمقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقَطْر السحاب، وعدد التراب، وهو الله الذي يحيط بما كان، والعالِمُ بما سيكون".[1]

وليس هناك أكمل ولا أوفى من وصف بلاغة هؤلاء القوم من قول الله تعالى في شأنهم: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[الزخرف: ٥٧، ٥٨]، إن وصفهم باللدد، والمبالغة في الخصومة، والجدل كلها تعني ذرابة اللسان، ونصاعة البيان، والقدرة على تصريف القول وتشقيقه، والذهاب به كل مذهب عند المحاجَّةِ.

إن من يُوكل إليه إقناع مثل هؤلاء القوم، وإفحام من اتبع هواه دون إنصاف، لسيِّد بلغائهم، وأفصح رجالهم دون منازع.إن هذه النشأة اللغوية في ربوع الفصاحة، ومسارح البلاغة، كانت بعض عوامل الإعداد الإلهي لنبيه الكريم لحمل الرسالة، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

ثالثاً: موهبة الرسول ـ ﷺ ـ الفذة التي لا نظير لها في المواهب البشرية، وهذه الموهبة تتمثل في: فطرة صافية، وذهن جوال، وبصر نفاذ، ونفس مجتمعة فاضلة، وإحساس دقيق مرهف، وبديهة حاضرة.

وليس غريباً أن يجتمع ذلك كله لرسول الله ـ ﷺ ـ؛ لأن الله ـ عز وجل ـ يصنع رسله على عينه بما تقتضيه حكمته، فهو أعلم حيث يجعل رسالته. وهذه الموهبة التي توافرت للنبي ـ ﷺ ـ لو لم تكن لديه، بالإضافة إلى الإلهام الإلهي، والتدبير العظيم لأن

---

١ ـ البيان والتبيين٢٨/٣، ٢٩ للجاحظ. تحقيق وشرح/ عبد السلام هارون.ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ مصر.ط:١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م. ومعنى وهمه: أي: خاطره، يقال: وهم الشيء: دار في خاطره.يمتح: المتح: هو: جَذْبُ رِشاءَ الدَّلْو تمُدهُ بيد وتأْخذ بيد على رأْس البئر. راجع: اللسان مادتي(وهم ـ متح).

يكون محمد أبلغ الجميع، ما أفادته النشأة اللغوية في شيء، فكم مِنَ العرب مَنْ نشأ نشأته ﷺ. ولم يبلغ ذرة من إبداعه البياني ﷺ!

رابعاً: تأثره ﷺ بالقرآن الكريم، وذلك أمر طبعي جلي لا غرابة فيه؛ لأن على قلبه المتصل بجلال الله تنزل القرآن: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، ومن لسانه تلقاه المسلمون: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وبأمره سجله الصحابة وكتبوه، وبالقرآن كان يحكم بين الناس: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٩]، وكانت مهمته ﷺ شرحه وبيانه للناس: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، وبترتيله وتلاوته أُمر: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤]، ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ومن ثَمَّ فليس هناك ما يدعو إلى الغرابة بتأثر الرسول ﷺ بالقرآن الكريم، فهو الذي تتلمذ عليه، وتخرج من مدرسته.

وإذا كان خصوم الإسلام قد دهشوا لنظم القرآن وروعة أسلوبه، فإن محمداً ﷺ كان أشد تأثراً بذلك، كما كان دائم التفكير في هذا البيان المعجز، ويزن كل آية بميزان دقيق، بحيث تتكشف له دلائل عميقة لا يلمحها سواه؛ لذلك كان دائم الخشوع، غزير الدمع حين يتلوه وحين يسمعه.

أجل! إن العناية التي استخلصته ﷺ لرسالة السماء قد طبعت حياته بطابع السماء، حتى إذا جاء زمان الدعوة صادف القرآن نفساً ظامئة، وقلباً تائقاً، وروحاً متطلعة، فروى الظمأ وشفى الغليل، وكان ذلك كله التفسير الصادق لقول الله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧]. إن هذا الكتاب المبين قد ملأ حياة النبي ﷺ. وشغل عقله وقلبه، وأورثه الحكمة والحجة والبيان. لقد كان القرآن الكريم أستاذ النبي ﷺ. ومعلمه الأوحد، الذي يستلهمه ويستهديه، كما كان طمأنينة خاطره، ومصباح عقله، وملهم معانيه، ومحدد اتجاهه؛ ولذا كان للقرآن الكريم الأثر العظيم في علو بلاغته ﷺ.، وعذوبة بيانه،وروعة حديثه.

تلك هي أهم الأسباب التي كانت تقف وراء تفوق البلاغة النبوية، وعظم مكانتها، وارتفاع شأنها فوق أية بلاغة بشرية.

المبحث الثاني: الجانب التطبيقي،

ويحتوي على:

ـ عرض نص حديث دعاء السفر، وتخريجه.

ـ دراسته وتحليله، ثم الإشارة إلى أنه يدور حول ثلاثة محاور، هي:

المحور الأول: طلب الإعانة من الله عز وجل على التوفيق في الطاعة.

الثاني: طلب الإعانة من الله عز وجل على دفع مشاق السفر وآلامه.

الثالث: ملازمة العبد للتوبة في جميع أحواله.

عرض نص الحديث، وتخريجه:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ .كان إذا استوَى على بعيرِهِ خَارجاً إلى سَفَر، كَبَّرَ ثلاثاً، ثُمَّ قال:"﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[الزخرف/١٣، ١٤]. اللَّهُمَّ إنَّا نَسأَلُكَ في سفرِنَا هذا البِرَّ والتَّقْوَى، ومِنَ العَمَلِ ما تَرْضَى. اللَّهُمَّ هَوِّن عَلَيْنَا سَفَرَنا هذا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ. اللَّهُمَّ أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخَلِيفَةُ في الأهلِ. اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ في المالِ والأَهْلِ والوَلَدِ". وإذا رَجَع قَالَهُنَّ وزَادَ فِيهِنَّ:" آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ"[1].

هذا البيان النبوي الشريف يُعدُّ من الأحاديث الصحيحة التي رواها أئمة الحديث من أمثال: الإمام مسلم، وأبي داود وغيره من أصحاب السنن، وقد عقّب عليه صاحب كتابي:(التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، والاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار) بقوله :" وهذا الحديث يستند من وجوه صحاح كثيرة ، من حديث أبي هريرة، وحديث عبد الله بن سرجس، وحديث البراء، وحديث عبد الله بن عمر، وغيرهم"[2].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذا الحديث الشريف قد ورد بروايات عدَّة، وقد اختلفت فيما بينها بزيادة بعض الألفاظ، وتقديم بعضها الآخر، وقد اعتمدت الدراسة والتحليل على رواية ابن عمر . رضي الله عنهما . سالفة الذكر؛ وذلك لسببين:

الأول: ورودها في كتب الصحاح كصحيح مسلم، وسنن أبي داود.

الثاني: أنها الرواية المشهورة والأكثر حضوراً في أذهان العامة.

ومن ثَمَّ جاء اختيار تلك الرواية لتكون محلاً للدراسة والتحليل.

وبالتأمل في هذا البيان النبوي نجد أنه يدور حول ثلاثة محاور، هي:

---

١ ـ الحديث رواه مسلم في صحيحه، واللفظ له: مجلد/٥ ج٩ /٩٣ كتاب الحج ـ باب ٧٥ـ ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج أو غيره. حديث رقم: ٤٢٥ـ(١٣٤٢) ، وهو في رياض الصالحين ص٣٧٩ رقم(٩٧٩) باب: ما يقول إذا ركب دابة للسفر رقم:١٧٠، كما رواه أيضاً الإمام أحمد في مسنده١٤٤/٢ باب: مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب، حديث رقم(٦٣١١)، وفي ص١٥٠ حديث رقم (٦٣٧٤) ،وأبو داود في سننه٣٩/٢ تحت باب: ما يقول الرجل إذا سافر، عن أبي هريرة رقم(٢٥٩٨)، وعن ابن عمر رقم(٢٥٩٩)،والبيهقي في السنن الكبرى ٢٥١/٥ باب: ما يقول إذا ركب، رقم (١٠٦١٥) ولكن باختلاف يسير كقوله(ومن العمل ما تحبُ وترضى) بزيادة كلمة"تحب"، وهذه الزيادة موجودة أيضا في مسند الطيالسي٢٦١/١ رقم(١٩٣١)، ورواه النسائي في السنن الكبرى٤٥١/٦ باب: سورة الصافات رقم(١١٤٦٦)، ورقم(١٠٣٨٢) بلفظ:(اللهم إنا نسألك في مسيرنا هذا ...)، والطبراني في كتاب: الدعاء٢٥٥/١ باب: القول عند الخروج إلى السفر عن ابن عمر رقم(٨١٠، ٨١١)، وعن أنس بن مالك رقم(٨١٦)، وعن أبي هريرة رقم(٨٠٧) بلفظ:(اللهم ازو لنا الأرض، وهوّن علينا السفر...) ، ورواه الإمام مالك في الموطأ٩٧٧/٢، باب: ما يؤمر به من الكلام في السفر رقم(١٧٦٢) ، وجاء في :التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٣٥٢/٢٤ الحديث الثامن والثلاثون، والاستذكار٥٢٧/٨، رقم(١٨٣١).

٢ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد الله القرطبي٣٥٢/٢٤ الحديث الثامن والثلاثون من البلاغات ، وانظر: الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار٥٢٨/٨.

الأول: طلب الإعانة من الله عز وجل على التوفيق في الطاعة، وهذا المحور يتمثل في قول ابن عمر:" أن رسول الله ﷺ .كان إذا استوَى على بعيرِهِ خَارجاً إلى سَفَر، كَبَّرَ ثلاثاً، ثُمَّ قـــال:" ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[الزخرف/١٣، ١٤]. اللَّهُـمَّ إنَّا نَسأَلُكَ في سفرِنَا هذا البِرَّ والتَّقْوَى، ومِنَ العَمَلِ ما تَرْضَى".

الثاني: طلب الإعانة من الله عز وجل على دفع مشاق السفر وآلامه، ويتضح هذا في قوله:" اللَّهُـمَّ هَوِّن عَلَيْنَا سَفَرَنا هذا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ. اللَّهُـمَّ أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخَلِيفَةُ في الأهلِ. اللَّهُـمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ في المالِ والأَهْلِ".

الثالث: ملازمة العبد للتوبة في جميع أحواله، ويتبيّن هذا في قوله في ختام الحديث:" وإذا رَجَع قَالَهُنَّ وزَادَ فِيهِنَّ:" آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ".

في **المحور الأول** نجد أن الصحابي الجليل ابن عمر رضي الله عنهما يصف لنا حال معلِّم الإنسانية عندما كان يقوم برحلة سفر لأداء عبادة دينية:حج أو عمرة، أو عمل دنيوي، ماذا كان يفعل صلوات الله وسلامه عليه؟ يقول: عندما كان يستوي[1] على ظهر الدابة التي يركبها للسفر أو لغيره يذكر الله عز وجل ويعظمه قائلاً الله أكبر، ثم ينزهه عما لا يليق به من صفات الحوادث من الركوب، والكيف، والاستقرار المكاني وغير ذلك، ثم يعترف ﷺ بعجزه أمام قوة الله القاهرة التي بها ذلّل هذه الدواب، ومكّن الخلق من الانتفاع بها، ثم بهذا السفر القريب يتذكر السفر البعيد الذي يلاقي فيه العبد خالقه، الأمر الذي يدفعه إلى عدم التقصير في الطاعة حتى ولو كان في سفر- والذي هو قطعة من العذاب -؛ لأنه ربما تعثرت به دابته فيسقط عنها وينتهي أجله، فعليه التزود لهذا السفر الطويل بالذكر الدائم لله عز وجل، والطاعة التي لا تنقطع، ثم يطلب من الله عز وجل أن يعينه على طاعته، وأن يجنبه المعاصي،وأن يوفقه لكل عمل يرضاه.

كما أن هذا المحور يبرز لنا "مشهد الانطلاق . الذي . يُصور رسول الله . ﷺ . وقد استوى راكباً على بعيره، خارجاً إلى سفر. وفي حالة الاستواء هذه يكبّر ويُسبّح، والتكبير يعني: الاعتراف بأن الله أكبر من كلّ القوى، والتسبيح يعني: أنه منزّه عن كل نقص، وهذا الاعتراف الأوليُّ يُشجع على الانطلاق؛ لأن المؤمن بهذا الأكبر والأكمل من كلّ القوى، يطمئن إلى السفر راكباً على ما سخره الله من وسائل النقل؛ بعد أن لم يكن قادراً على

١ ـ معنى استوى:استقر وثبت.يقال: استوى على كذا أو فوقه:علا وصعد واستقر وثبت، وعليه استوى وملك. ويُقال: استوى على سرير الملك، أو على العرش: تولى الملك، وإليه قصد وتوجه. راجع اللسان مادة(سوى).

تسخيرها، الأكبر والأقوى يسخر للإنسان قُوَى يسافر عليها وبها، ويعيده إليه عندما يشاء وكما يشاء. إن مشهد انطلاق المسافر يُصور هذا الاعتراف"بأكبرية الله وسبحانيته" تعبيراً عن الاطمئنان إلى المصير السفريِّ؛ لأنه بظلِّ هذا القويِّ الأعظم يجري"[1].

وإذا أنعمنا النظر في **نظم هذا المحور** فسنجد أن النبي ﷺ عندما استقر على ظهر البعير كبّر: أي قال: الله أكبر ثلاثاً، وهنا سؤال يطرح نفسه: ما علاقة التكبير بالاستواء على ظهور الدواب؟أقول: إن الاستقرار على ظهور الدواب من الأشياء التي تذكّر بعظمة الله تعالى وكبريائه، كما أنّ تسخير الله هذه الدواب للإنسان تستحق ذكر الله وتكبيره، فلولا هذا التسخير والتذليل من الله لهذه الدواب، لما استطاع الإنسان ـ كائناً من كان ـ أن ينتفع بها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى جاء هذا التكبير؛ ليقابل ما جاء في سياق الآيات الكريمة والتي اقتبس منها ﷺ الحالة التي يكون عليها عند السفر ؛ إذ موقف الركوب، والاستواء على ظهور الأنعام عند سفره، هذه الحالة تتشابه إلى حد كبير مع سياق تذكر النعم الذي جاء في الآيات التي وردت فيها، وهي قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾[2].

فـ"استوى على بعيره" تتناسب مع قوله تعالى:﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾، وقوله:﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ يقابله في الحديث:"كبّر ثلاثاً"؛ لأن التكبير ذكرٌ لله وتعظيم. إذن فالتكبير في هذا المقام كان بسبب أن الله عز وجل قهر هذه الدواب وذلَّلها، ومن فعل ذلك؛ فهو كبير يستحق التعظيم.

ثم ما السر في جعل التكبير ثلاثا؟ أقول: إن تكرار "الله أكبر" ثلاث مرات، فيه دلالة على المبالغة في تنزيه الله تعالى، وتقديسه مما ذكر من الركوب والاستقرار المكاني، وغير ذلك من سمات الحوادث؛ لأنه أكبر، و﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[الشورى: ١١]، أو أن التكرار جاء ثلاثاً؛ لأن" الأول:إيماء إلى الكبرياء والعظمة في الذات، والثاني: للكبرياء والعظمة في الصفات، والثالث: إشعار بتنزيهه عن الاستواء المكاني"[3].

ثم انظر إلى دلالة هذا القيد(على بعيره)، وهل هذا التكبير والدعاء يكون في حالة الركوب على الدواب فقط دون غيرها، أم يشملها وغيرها؟ نعم، إن ذكر الله عز وجل، والتضرع إليه لا يرتبط بالاستقرار على ظهر الدواب فقط، بل يعم ويشمل جميع

١ـ تفسير الحديث النبوي في دروس عصرية ص٢٦٥ د/ أسعد أحمد علي.ط: دار الرائد العربي.بيروت.ط: الثانية:١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م.
٢ ـ الزخرف:١٢، ١٣.
٣ ـ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين١٤٦/٦ لمحمد بن علان الصديقي الشافعي.ط: دار الكتاب العربي ـ بيروت.

وسائل السفر الأخرى، براً وبحراً وجواً، بالسيارات أو القطارات، بالسفن أو الطائرات إلى غير ذلك من الوسائل.أما دلالة هذا القيد(على بعيره) فإنه جاء لوصف واقع لحال النبي ﷺ . عندما كان يخرج مسافراً، ولم يكن متوفر له من وسائل السفر غير ركوب الدواب من الإبل والخيل والبغال والحمير، ومن ثم ارتبط ذكر هذا الدعاء عند ركوبها، ويؤكد ذلك أيضاً دلالة اسم الإشارة في قوله تعالى:﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾ ، حيث جاء مبهماً دون أن يحدد الشيء الذي يركب، ويبين نوعه أوعينه، فصار الدعاء صالحاً لكل مركوب، فأي وسيلة يركبها الإنسان عليه أن يأتي بهذا الدعاء.

ثم انظر إلى دلالة التنكير في قوله:(سفر)، فنلمح فيه الإشارة إلى إفادة العموم، فيشمل بذلك عموم السفر أيّاما كان قريباً أم بعيداً، طويلاً أم قصيراً.إذن لابد من هذا الذكر طالما أن هناك ركوباً على الدواب، أو أن هناك سفراً.

ثم نجده . ﷺ . يقتبس من القرآن الكريم ما ذكره بعد ذلك في دعائه، عندما قال بعد التكبير:"﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤ ﴾ ، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مدى تأثره ـ ﷺ . بالقرآن الكريم، وتوظيفه لآياته في المكان المناسب لها، ولا غرو في ذلك فهو مُعلّمه الأول، وأستاذه الأوحد.

ثم نلحظ هنا أنه بدأ بعد التكبير بقوله تعالى:﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي ﴾، ولم يقل: "الحمد لله الذي سخر لنا هذا"، فما السبب في ذلك؟ إن السر في ذلك هو أن كلمة: ﴿ سُبۡحَٰنَ ﴾" تدل على التنزيه: يعني تنزيه الله . عز وجل . عن الحاجة، وعن النقص، فكأن الإنسان يشعر إذا ركب على هذه الفلك والأنعام أنه محتاج إليه، يستعين به على حاجاته، فيسبح الله عز وجل الذي هو مستغنٍ عن كل خلقه، فكان التسبيح في هذا المقام أنسب"(١).

ثم لماذا عبرّ باسم الموصول هنا فقال:﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي ﴾، ولم يقل:"سبحان الله"؟ أقول: عبر بذلك لإفادة التذكير بالنعمة، والتأكيد على تنزيه المنعم، وأنه ما استحق هذا التنزيه إلا بسبب أنه وهب هذه النعم، وذلك ما تفيده صلة الموصول، أما لو قال"سبحان الله" ما دل ذلك على بيان علة التسبيح. ثم تأمل اعتراف الإنسان المؤمن بالعجز أمام قدرة الله عز وجل عندما قال:﴿ سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾أي: لولا تسخير الله لهذه الدواب ما استطعنا ولا قدرنا على تذليلها، ولا الاستفادة منها.ثم جاء قوله:﴿ وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ

١ ـ شرح رياض الصالحين ١١١٣/١ لمحمد بن صالح العثيمين.

﴾[1] . أي: مطيقين . ، لتدل على الزيادة في تأكيد عجز العبد أمام قوة الله القاهرة له ولجميع الخلائق، فهو الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم انظر إلى قوله تعالى:﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ تجد أن نظم الآية أُكِّد بعدة مؤكدات: إنّ، ودخول اللام في الخبر، وتقديم الجار والمجرور، واسمية الجملة، فهل المقام في حاجة إلى تلك المؤكدات؟ وما علاقة هذه الآية بقوله:﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾؟.

أقول: لما كان السفر مظنة للتقصير في العبادة، والانشغال عن طاعة الله، جاءت هذه المؤكدات لتلفت انتباه المسافر إلى الاحتراز عن الوقوع في ذلك، وتحثه على الاجتهاد في الطاعة قدر استطاعته. أما عن وجه الربط بين قوله﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ وما ذكر قبلها، فإن حالة السفر في حقيقتها ما هي إلا تذكير بالآخرة في جميع مراحلها، فكما أن المسافر يتزود في سفره الدنيوي بأخذ الزاد معه؛ حتى لا يهلك، فينبغي له أن يتزود بكثرة الطاعات، والأعمال الصالحة حتى ينجو من العذاب، ويفوز بجنة الرضوان.

إن هذه الآية الكريمة جاءت في هذا المقام "لتنبيه القائل للموت الذي قد ينشأ عن الركوب من تعثر الدابة وسقوطه عنها، فيحمله ذلك على الاستكانة لله سبحانه، والتوبة عن سائر المخالفات"[2]، ولتأكد على أن العبد لابد أن يكون على ذكر دائم لله تعالى في جميع أحواله، في حلّه و ترحاله، في سفره أو إقامته، في صحته أو مرضه؛ لأنه لا يعلم إذا سافر هل يرجع إلى أهله أم إلى قبره، أم لا يرجع أصلاً؟ إن رحلة السفر تذكره بالرجوع إلى خالقه، وبالتالي ينبغي علي المسافر ألا يقترف في رحلته ذنباً، ولا يرتكب جرماً، بل عليه أن يقترب من مولاه، وأن يُعد العدّة للقياه.

يقول صاحب"شرح رياض الصالحين"معقباً على قوله تعالى:﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾، وسر مجيئها في هذا المقام بقوله: هذه الجملة جملة عظيمة، كأن الإنسان لما ركب مسافراً على هذه الذلول أو الفلك، كأنه يتذكر السفر الأخير من هذه الدنيا، وهو سفر الإنسان إلى الله عز وجل إذا مات، وحملته الناس على أعناقهم، فيتذكر ويقول:﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ، فالمنقلب إلى الله جل وعلا ، والله تعالى يقول في كتابه العزيز:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ [الانشقاق/٦] كادح إلى ربك: يعني سيكون مآلك، ومآل كدحك إلى الله عز وجل:﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾أي: عامل وراجع إلى ربك:﴿ فَمُلَٰقِيهِ ﴾، كلنا سوف يلاقي الله، ولكن على أي شيء وشأنٍ نلاقي الله عز وجل ؟ إن الإنسان لا يهمه أين يموت؟ ولا متى يموت؟ بل ربما أنه يحب أن يطيل الله عمره، وأن

---

١ ـ مقرنين: أي مطيقين، يقال: أَقْرَنَ له وعليه أَطاق وقوِيَ عليه واغْتَلى. وهو مشتق من قولك أَنا لفلان مُقْرِنَ: أَي مُطيق. ينظر: لسان العرب مادة(قرن)

٢ ـ دليل الفالحين١٤١/٦.

يموت في بلد مقدس كما اختار ذلك موسى . عليه السلام .، لكن الشأن كل الشأن، على أي شيء يموت؟ فإذا مات العبد على الإيمان والتوحيد فإن هذا هو المهم، أي أنه إذا كُتب له الموت على خير فإنه لا فرق أن يموت هنا أوهناك، أو في بلد مقدس أو غير مقدس ،ولا في هذا الشهر، ولا في هذا اليوم، ولا في هذا الوقت، المهم أن يموت على خير، فينبغي للإنسان إذا ركب دابته أو سيارته أو الطائرة أو القطار أن يقول هذا الذكر الوارد عن النبي . ﷺ . ليكتب له التوفيق والرشاد[1].

ثم تأمل قوله . ﷺ . بعد هذا الثناء على الله جل وعلا من التكبير والتسبيح: "اللَّهُمَّ إِنَّا نَسأَلُكَ في سفرِنَا هذا البِرَّ والتَّقْوَى، ومِنَ العَمَلِ ما تَرْضَى"، تجد أنه قبل أن يسأله نداه، إشارة إلى أنه لابد من القرب من الله أولاً قبل كل شيء، ثم يأتي الطلب منه بعد ذلك، ثم نجد اختياره لهذا الاسم في ندائه" اللهم"[2] دون الاسم المعتاد وهو"يا الله"، فما السر في ذلك؟

أقول:إن النداء بهذا الاسم"اللهم" وإن كان معناه "يا الله"، إلا أن اختياره دون غيره يرجع إلى أن هذا الاسم له خصائص كثيرة منها:

أولاً: أن الميم فيه عوض من الياء، ولذلك لا يجتمعان. وقيل: إن الميم زيدت فيه للتعظيم والتفخيم؛ لأن الميم تدل على الجمع وتقتضيه،ومخرجُها يقتضي ذلك أيضاً، فهي حرف شفهي، يجمع الناطق به شفتيه، ولذا وضعته العرب علَماً على الجمع، فقالوا للواحد: أنت، فإذا جاوزوه إلى الجمع قالوا: أنتم، وكذا هُوَ:وهُمْ .كما أن الألفاظ التي فيها حرف الميم يبرز فيها معنى الجمع. فيُقال: لَمَّ الشيء يَلُمُّه بمعنى: جمَعَه، ومنه: الأُم، وأُمُّ الشيء: أصله الذي تفرع منه، فهو الجامع له، وبه سميت مكة: أم القرى.

فإذا عُلِم هذا من شأن حرف الميم؛ فُهِم سرّ لُحُوقها في آخر هذا الاسم الذي يُسأل الله سبحانه وتعالى به في كل حاجة وكل حال؛ إيذاناً بجمع أسمائه وصفاته، فالسائل إذا قال: اللهم إني أسألك، كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العُلا بأسمائه كلها. ولهذا قال الحسن البصري:"اللهم" مجمع الدعاء، وقال أبو رجاء العُطاردي: إن الميم في قوله:"اللهم" فيها تسعة وتسعون اسماً من أسمائه، وقال النضر بن شميل: من قال:"اللهم"، فقد دعا الله بجميع أسمائه. ودلت الميم هنا على الجمع؛ لأنها بمنزلة الواو، ثم

١ ـ ينظر: شرح رياض الصالحين ١/ ١١١٣.

٢ ـ لفظة "اللهم" تستعمل على ثلاثة أنحاء: أحدها: النداء المَحْض. ثانيها: أن يذكرها المجيب تمكيناً للجواب في نفس السامع، كأن يقول لك القائل: أزيد قائم؟ فتقول: اللهم نعم، أو اللهم لا. ثالثها: أن تستعمل دليلاً على النُدرة وقلة وقوع المذكور، نحو قوله: أنا أزورك، اللهم إذا لم تَدْعُني. ألا ترى أن وقوع الزيارة مقروناً بعدم الدعاء قليل. ينظر:نتائج الأفكار ص٢١١ للسفاريني.

شُدِّدت لتكون عوضاً عن علامتي الجمع وهي: الواو والنون في (مسلمون) ونحوه، فكأن الداعي بها يقول: يا الله الذي اجتمعت له الأسماء الحسنى، والصفات العُلا.

ثانياً: أن "اللهم" لا يُستعمل إلا في الطلب، فلا يُقال: اللهم غفور رحيم، بل يُقال: اغفر لي وارحمني.

ثالثاً: أنه لا يصح أن يوصف هذا الاسم أيضاً، فلا يُقال: اللهم الرحيم ارحمني، ولا يُبدل منه.

رابعاً: أن لفظ الجلالة (الله) اختص أيضاً ببعض الخصائص مثل: اختصاصه بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه وفيه لام التعريف، وبقطع همزة وصله في النداء فيقال:يا ألله، وتفخيم لامه وجوباً غير مسبوقة بحرف إطباق، إلى غير ذلك[1].

ثم بعد ذلك جاء قوله" إنَّا"لتأكيد الدعاء، والاحتياج إلى تحقيقه، ثم قال" نَسأَلُكَ"ولم يقل" ندعوك"؛ لأن السؤال فيه طلب وترقب وتلهف للإجابة، كما أن في السؤال إحساساً بالعجز وشدة الحاجة، ثم أتى باسم الإشارة ليصف به حالة السفر فقال" في سفرِنَا هذا" لتحديد المشار إليه وهو السفر وتعيينه؛ لأن الوصف باسم الإشارة له "مزية يلمسها الذوق؛ لأنه يجسم المعاني المعقولة، وينقلها إلى حيز الموضوع تحت البصر والمشار إليه بالبنان، فإذا كان المشار إليه محساً زاده تمييزاً وانكشافاً، بتوجيه السامع إليه لزيادة اهتمام المتكلم به في مقام يستدعي ذلك من المدح أو الذم أو سواهما"[2].ثم جاء تكرار هذا الاسم في الحديث أكثر من مرة:﴿ سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾، "نَسأَلُكَ في سفرِنَا هذا البِرَّ والتَّقْوَى"،"هَوِّن عَلَيْنَا سَفَرَنا هذا"؛ وذلك لزيادة التحديد والتعيين للمشار إليه، ولإفادة العناية والاهتمام بشأنه.

ثم تقدم النبي . ﷺ . في هذا البيان النبوي" خطوة جديدة فيها رجاءٌ للقادر، وطلب من فضله، فسأل من الله أعطياتٍ للمسافر، منها: الخير، والحماية، والعمل المرضي"[3]، فقال:" البِرَّ والتَّقْوَى، ومِنَ العَمَلِ ما تَرْضَى[4]"".

ويلحظ هنا أن الحديث يتدرج مع المسافر وما يحتاج إليه في رحلة سفره ، فبدأ بطلب التوفيق في الأعمال الصالحة، والتركيز على تحقيق ذلك مستخدماً زيادة التفصيل

١ ـ ينظر: الكشاف٣٧٨/١، وانظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام ١٤٣/١ لابن القيم، ونتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار ص١٨٦ لأبي العون محمد السفاريني ط: دار الصميعي ـ الرياض ـ السعودية. ط: الأولى:١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، والإتقان ٢/ ١٦٣.

٢ ـ في الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص٤١١ لعز الدين على السيد.ط: دار الطباعة المحمدية ـ القاهرة. ط:١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٣م.

٣ ـ تفسير الحديث النبوي في دروس عصرية ص٢٦٥.

٤ ـ المقصود: العمل الصالح الذي يحب العبد فعله، ويقبله المولى جل في علاه، ويرضى به عنه.يُقال: رضي عن الشيء، ورضي به وعليه رضاً، أي: اختاره وقَبِلَه.راجع المعجم الوسيط مادة(رضي).

والإطناب في ذكرها؛ للدلالة على شدة الرغبة في تحقيقها، وللإشارة إلى مدى الحرص على عمل الصالحات، واجتناب المنهيات؛ لأن السفر مظنة للتقصير في الطاعة، ومظنة لفعل الأعمال التي لا يرضى عنها الله عز وجل، ومن ثَمَّ فمن وفق لعمل الطاعات، واجتنب ارتكاب المعاصي في سفره كان جديراً بإجابة دعائه كما ورد في الحديث الصحيح:" ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لاَ شَكَّ فِيهِنَّ: وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ... الحديث"[1]؛ وذلك "لأن السفر مظنة انكسار القلب بطول الغربة عن الأوطان، وتحمل المشاق، والانكسار من أعظم أسباب الإجابة،كما كان ذلك جبراً لمقاساته وعناء السفر"[2]، ولأنه أيضاً جمع . حينئذ . بين مشقتين: مشقة الطاعة، ومشقة السفر، فكانت مكافأته إجابة دعوته، ويستمر ذلك له حتى يرجع.

ولفظ"البر"المقصود منه:أنه كلمة جامعة لجميع أفعال الخير،وخصال المعروف، و"التقوى":كلمة جامعة لفعل الأوامر واجتناب النواهي، أو "البر": معاملة الخلق بالإحسان، و"التقوى": معاملة الحق بفعل طاعته، واجتناب محرماته، وعلى هذا المعنى: يكون عطفها على "البر" من باب عطف العام على الخاص.وقيل:إن المراد من"البر": فعل الواجبات.و"التقوى":اجتناب المحرمات.وعلى هذا التفسير: يكون عطفها على"البر" من باب عطف الضد على الضد؛ لأن معنيهما . حينئذ . متغايران.وهذا الاختلاف بين الكلمتين إذا اجتمعتا معاً، أما إذا ذكرت كل واحدة منهما على سبيل الانفراد، فإنها تتناول معنى الأخرى. [3]

ونلحظ أن البيان النبوي قد ذكر هذه الأشياء الثلاثة فقط، مع أن هناك خصالاً كثيرة مرغوباً فيها مثل: الصبر، وشكر النعم وغير ذلك. فلماذا اقتصر عليها بالذات؟ أرى أن السبب في ذلك يرجع إلى أن هذه الأمور تعد مرتكز الأعمال الصالحة، وأعمدة الطاعات كلها. انظر . على سبيل المثال . إلى إحدى هذه الخصال وهي: "التقوى" تجد أنها مع قلة ألفاظها لها أثر جليل، وشأن عظيم؛ حيث إنها أساس كل فلاح ونجاح، وجامعة لحق الحق والخلق، وشاملة لخيري الدارين، "يقول الغزالي: ليس في العالَم خصلة للعبد أجمع للخير، وأعظم للأجر، وأجلّ في العبودية، وأعظم في القدر، وأدنى للحال، وأنجع للآمال

١ ــ الحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده٢٥٢/١٦رقم(٧٧٢١)، والترمذي في سننه٣١٤/٤(١٩٠٥)،وأبو داود٥٦٣/١(١٥٣٨).
٢ ـ فيض القدير٣١٧/٣، وانظر: دليل الفالحين١٥٣/٦.
٣ ـ ولتوضيح المقصود من الكلمتين بصورة أوضح، أقول:إن كلمتي: البر والتقوى إذا جمع بينهما في الذكر فُرِّق بينهما في المعنى، وإذا انفردت إحداهما عن الأخرى شملت المعنى الذي تفرَّق عند الاجتماع، فالبر عند إطلاقه يشمل كل الأوامر والنواهي، والتقوى إذا انفردت تشمل كل الأوامر والنواهي، ولكن إذا جمع بينهما فُسِّر البر: بامتثال الأوامر، وفُسِّرت التقوى: باجتناب النواهي، فهما من جنس: الفقير والمسكين، والإسلام والإيمان، فهذه ألفاظ إذا جمع بينها في الذكر وُزِّع المعنى عليها، وإذا فُرِّق بينها في الذكر بأن جاء أحدها ليس معه الآخر فإنه يستوعب المعاني التي وزعت عند الاجتماع.راجع: شرح سنن أبي داود ١٤/ ٧٤ ، لعبد المحسن العباد.

من هذه الخصلة التي هي "التقوى"، وإلا لماّ أوصى الله بها خواص خلقه[1]، فهي الغاية التي لا مُتجاوز عنها، ولا مُقتصر دونها، قد جمع الله فيها كل نصح ودلالة، وإرشاد وتأديب وتعليم، فهي الجامعة لخيري الدارين، الكافية لجميع المهمات، المبلغة إلى أعلى الدرجات"[2].

ومما يؤكد أهمية هذه الخصلة الجليلة، خصلة "التقوى" خاصة في حق المسافر، وأنها حصنه المنيع في رحلته، ما ورد في الحديث من أن رجلاً جاء إلى النبي . ﷺ . وقال له: يا رسول الله إني أريد أن أسافر فأوصني، قال:"عليك بتقوى الله ... الحديث"[3]. أرأيت لِمَ اقتصر البيان النبوي على هذه الأمور خصوصاً ؟ وأنها من الأهمية بمكان؛ لذا كان التركيز عليها دون سواها.

ومما يلفت الانتباه هنا أن الحديث قد جمع بين لفظتي: البر والتقوى، مع أنه كان من الممكن أن يكتفي بذكر إحداهما؛ لأن في ذكرها دلالة على الأخرى، فمن أقبل على فعل الخير، تجنب فعل المعاصي، ومن اتقى ربه فعل ما أمر ، وابتعد عما نهى، ولكنه مع ذلك فقد جمع بينهما ، فما سر ذلك؟ أحسب أن رسول الله ﷺ جمع بينهما؛ لأنه أراد أن يجمع للمسافر في هذا الطلب بين ما يعود أثره على نفسه هو، فسأله "التقوى"، وبين ما يعود أثره على غيره، فطلب منه العون على"البر"، بالإضافة إلى ذلك فإنه اقتفى أثر معلمه، القرآن الكريم، وتأثر به أيَّما تأثر في نظمه وتراكيبه، فالمولى . جل وعلا . قد جمع بينهما في أكثر من موطن، من ذلك قوله تعالى:﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله:﴿ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المجادلة: ٩]

كما نلحظ أن بين هذه الأمور الثلاثة ما يسمى عند البلاغيين بمراعاة النظير[4]، حيث نجد أن بينها مناسبة جلية؛ إذ إنها كلها تمثل أفعال خير، وأعمال طاعة.

أما المحور الثاني: وهو طلب الإعانة من الله عز وجل على دفع مشاق السفر وآلامه، فيبدأ بقوله . ﷺ .:" اللَّهُمَّ هَوِّن عَلَيْنَا سَفَرَنا هذا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ. اللَّهُمَّ أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخَلِيفَةُ في الأهلِ. اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ في المالِ والأَهْلِ".

---

١ ـ يقصد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ [النساء: ١٣١].

٢ ـ فيض القدير ٣/٧٤.

٣ ـ الحديث: رواه الترمذي في سننه ٥/٥٠٠ حديث رقم(٣٤٤٥).

٤ ـ والمقصود من مراعاة النظير ـ عند البلاغيين ـ هي: أن يُجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد.كقوله تعالى:﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾ [الرحمن: ٥].راجع الإيضاح ٤/١٦، وشروح التلخيص ٤/٣٠١.

ونلحظ في بداية هذا المحور أن لفظة" اللهم" قد كررت مع أنه قد سبق ذكرها، وكان يكفي أن يقول:"وهَوِّنه عَلَيْنَا"، فما السر وراء ذلك؟ أقول: إن تكرارها فيه زيادة في الضراعة، وإعلان عن شدة الافتقار إلى الله، وزيادة في اللجوء إليه . جل وعلا . . ثم نجده . ﷺ . يطلب تسهيل السير في هذه الرحلة، وتيسير صعابها، وتذليل مشقاتها، فيقول:" هَوِّن[1] عَلَيْنَا سَفَرَنا هذا"، ثم نراه يترقى في طلب دفع المشقة فيقول:"وَاطْوِ[2] عَنَّا بُعْدَهُ"، حيث لم يكتف بطلب التهوين، وإنما ذكر طلب طيِّ المسافة بالنص عليها؛ حيث إن قوله:" اطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ" أدخل في باب دفع مشقة طول المسافة، وتقريب أبعادها، من قوله:" هَوِّن عَلَيْنَا". والطيُّ المقصود به هنا: إما طيٌّ حسيٌّ حقيقة: وذلك بانزواء مسافة الأرض، بانضمام بعضها إلى بعض، ويؤيد هذا المعنى ما جاء في الحديث:"وعَلَيكُمْ بِسَيْرِ اللَّيْلِ فَإنّ الأَرضَ تُطْوَى بالليلِ ما لا تُطْوَى بالنَّهارِ"[3]، أَي: تُقطع مسافتُها بالليل؛ لأَن الإنسان فيه أَنشَطُ منه في النهار، وأَقدرُ على المشي والسير، لعدم الحرِّ وغيره. وإما طيٌّ معنويٌّ حكماً: فتكون كناية عن قرب التقاء مكان بدء رحلة السفر بمكان نهايتها، وذلك بأن ييسر له من النشاط، وحسن الدواب ما يصل به مستريحاً سالماً من وعثاء السفر، كما أن تسهيل سيره في الأرض حتى لا تطول عليه، يجعله يشعر وكأن الأرض قد طويت له. ويؤيد هذا المعنى الأخير قوله من قبل:"هوِّن عَلَيْنَا سَفَرَنا هذا"،أي: سهّله علينا بدفع مؤذيات السفر، وحزونه عنا[4].

وليس هناك مانع من أن يحقق الله تعالى لعبده المؤمن في سفره المعنيَيْن معاً، فيجمع له إلى جانب تسهيل وسيلة السفر، وتذليل ما يقابله من صعوبات، أن يضم له الأرض ويقبض بعضها إلى بعض، فيقصِّر له مسافة السفر حتى لا يشعر بطولها، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم انظر إلى استخدام الاسم الظاهر في مقام كان يقتضي ظاهر السياق استخدام الضمير فيه، أعني: لفظ" السفر" في قوله:" اللَّهُمَّ هَوِّن عَلَيْنَا سَفَرَنا هذا"، فمقتضى الظاهر أن يقول:" اللَّهُمَّ هَوِّنه عَلَيْنَا"؛ لأن مرجع الضمير سابق عليه في قوله:" اللَّهُمَّ إنَّا نَسأَلُكَ

١ ـ هوّن: أمر من التهوين، بمعنى: يسر وخفف. وهو من هانَ يَهُونُ هَواناً، والهَوْنُ مصدر: هانَ عليه الشيءُ أَي: خَفَّ، وهَوَّنه الله عليه أي: سهَّله وخففه، وشيءٌ هَيِّنٌ، أي: سهل. راجع اللسان مادة(هون).

٢ ـ اطو: أمر من الطيّ، بمعنى: ضمها وقرّبها لنا، وسهّل لنا السير فيها. يُقال:طَوَيتُ الصَّحيفةَ أَطْوِيها طَيّا، والطَّيُّ نَقِيضُ النَّشْرِ، وطَوَي الشيء طيًّا: ضم بعضه على بعض، أو لف بعضه فوق بعض، و يقال: طَوَى البِلادَ طَيّاً: قَطَعَها بلَداً عَنْ بَلَدٍ، وطَوَى الله لنا البُعْدَ، أَي: قرّبَه.راجع اللسان والمعجم الوسيط مادة(طوي).

٣ ـ الحديث في: الموطأ٩٧٩/٢ حديث رقم(١٧٦٧)، وسنن أبي داود ٣٣/٢ حديث رقم(٢٥٧١)، والسنن الكبرى للنسائي٢٣٦/٦.

٤ ـ ينظر: دليل الفالحين١٥٢/٦، ولسان العرب مادة (طوي).

في سفرِنَا هذا البِرَّ والتَّقْوَى"، فما السر وراء ذلك؟ أقول: إن البيان النبوي عبر بالاسم الظاهر بدل الضمير في هذا المقام ؛ لغرض بلاغي وهو: زيادة تمكن هذا الاسم"السفر" في ذهن السامع، اعتناءً به، واهتماماً بما يتعلق بشأنه؛ إذ الحديث كله حوله يدور، وعنه يتحدَّث.

ثم ينتقل البيان النبوي بعد ذلك إلى معالجة الحالة النفسية التي تعتري المسافر، وهي خوفه على نفسه من مخاطر الوحشة، وفقدان الصحبة التي تخفف من آلام السفر، ثم قلقه وتوتره على من هم في أشد الحاجة إلى وجوده بجوارهم وهم أهله، ومن كانوا في رعايته من الأبوين أو الإخوة أو غيرهما. يعالج ذلك كله رسول الله ﷺ. قائلاً:" اللَّهُمَّ أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخَلِيفَةُ في الأهلِ[1]". بهذا النظم الرقيق، الذي يفيض على قلب المسافر بالسكينة والطمأنينة، فيشعر بالأمان ويحس بالاطمئنان على نفسه وأهله، وبالتالي يخرج إلى رحلته وهو مستقر النفس، هادئ البال، قلبه مفعم بالإيمان، ولسانه رطب بذكر الرحمن ؛ لأن عناية الله تصحبه، ورعاية الله تحيط بأهله.

تأمل أثر هاتين الكنايتين، ودلالتهما الدقيقة" أنتَ الصَّاحِبُ، والخَلِيفَةُ في الأهلِ"، تجد أن الأولى جاءت كناية عن الملازمة والأنس، والإحساس بالقرب والمحبة والمودة؛ حيث إن الله . عز وجل . مصاحب له في رحلته بالعناية والرعاية، والحفظ من الحوادث والنوازل.

وأما الأخرى فأتت كناية عن اطمئنانه على أهله؛ حيث إنه اعتمد على الله في حفظهم ورعايتهم، وتحصيل ما يفيدهم، وتحقيق ما يريدون، وأي خوف أو قلق عليهم بعد ذلك إذا كان الله هو الخليفة عليهم. إن انشغال المسافر على أهله وخوفه عليهم يُعدّ من أعظم آلام السفر وشدائده، فإذا تركهم في كنف الله وحفظه، لاشك أنه لن يخشى عليهم بعد ذلك من أي مكروه أو سوء، وهذا يؤدي إلى استقراره النفسي، واطمئنانه القلبي على من كانوا في أمسّ الحاجة إلى وجوده. إن المسافر بهذه الكناية اللطيفة قد خرج إلى سفره وهو يقول: اللهم" أنت الذي أرجوه، وأعتمد عليه في سفري، بأن تكون معيني وحافظي،

---

١ ـ (الصاحب):أي: الحافظ والملازم. يقال: صَحِبَه يَصْحَبُه صُحْبة: رافقه، ويُقال في الدعاء: صحبك الله،أي: حفظك ورافقتك عنايته.واستصحب الشيء: لازمه. والصاحب: المرافق ومالك الشيء، والقائم على الشيء.
و(الخليفة):أي: المعتمد عليه، والمفوض إليه أمور نفسي وأهلي.يُقال: خَلَفَ فلان فلاناً إذا كان خَلِيفَتَه، ويقال خَلَفه في قومه خِلافةً، والخَلِيفةُ:هو الذي يُسْتَخْلَفُ ممن قبلَه، والجمع خلائف، ويقال: خَلَفْتُ الرجلَ في أَهله: إذا أَقمتَ بعدَه فيهم وقمت عنه بما كان يفعله، وخَلَفَه رَبُّه في أَهلِه وولدِه: أَحْسَنَ الخِلافةَ. وخَلَفَه في أَهله وولَدِه ومكانِه يَخْلُفُه خِلافةً حسَنةً: كان خَلِيفةً عليهم منه، واستخلفه،أي: جعله خليفته. راجع: اللسان والمعجم الوسيط مادة(صحب، خلف).

وأعتمد عليه في غيبتي عن أهلي، أن تلمّ شعثهم، وتداوي سقمهم، وتحفظ عليهم دينهم وأمانتهم"[1].

ثم انظر إلى دلالة تعريف المسند إليه بالألف واللام في" الصاحب والخليفة"،إنها تدل على قصر المسند على المسند إليه، قصر صفة على موصوف، أي: قصر الصحبة على الله . جل في علاه . دون غيره، وقصر خلافة الأهل على الله . تبارك وتعالى . دون سواه.

إن المسافر بهذا التعبير يقول: يا الله إنني أكتفي بك في سفري عن كل مصاحب لي، وأكتفي بخلافتك على أهلي عن كل خليفة سواك. كما أن في ذلك أيضاً دلالة على أن الله . عز وجل . محيط بكل شيء ، يقول صاحب" شرح رياض الصالحين: في هذا الحديث كلمة تدل على إحاطة الله بكل شيء وهي قوله:"أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخَلِيفَةُ في الأهلِ" ، فالصاحب في السفر تعني: تصحبني في سفري، تيسره لي، وتسهله عليَّ. وأنت الخليفة في الأهل، تعني: الخليفة في الأهل من بعدي، تحوطهم برعايتك وعنايتك، فهو . جل وعلا . مع الإنسان في سفره، وخليفته في أهله؛ لأنه . جل وعلا . بكل شيء محيط. [2]

ثم نجد النبي . ﷺ . في هذا البيان النبوي يتقدم خطوة جديدة ، فينتقل من طلب الدعاء إلى الاستعاذة، فيقول:" اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ[3] مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ في المَالِ والأَهْلِ".

ونلحظ أن الاستعاذة قد صدرت أيضاً بلفظة:" اللَّهُمَّ"، وكما أشرنا من قبل بأن في ذلك إعلاناً عن شدة الافتقار إلى العلي القدير، وزيادة في الخضوع واللجوء إليه، والاعتصام به دون سواه. ثم نلحظ أنه في مقام طلب الاستعاذة من متاعب السفر قال: " اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ" بصيغة الإفراد، بينما في مقام طلب الدعاء في التوفيق إلى الطاعة، جاءت الصيغة بالجمع هكذا" اللَّهُمَّ إنَّا نَسأَلُكَ في سفرِنَا هذا البِرَّ والتَّقْوَى... اللَّهُمَّ هَوِّن عَلَيْنَا...، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ"، وهذا مما يدخل عند البلاغيين في باب خروج الكلام على

١ ـ تحفة الأحوذي ٢٨٠/٩، وعون المعبود شرح سنن أبي داود١٨٥/٧ للعظيم آبادي.
٢ ـ ينظر: شرح رياض الصالحين ١/ ١١١٣.
٣ ـ ومعنى التعوذ والاستعاذة:الالتجاء والاعتصام.يُقال:أعوذ عَوْذاً وعِياذاً ومَعاذاً، أي: لجأت، وتقول :أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: ألجأ إلي الله وأعتصم به منه.وأعوذ بك:أي يا أله ألتجئ إليك وأعتصم بك؛ لأن كل متعوذ بغيرك خائب، وكل معتصم بسواك ناكب.فأعوذ برحمتك وعفوك ورضاك ومغفرتك.راجع: نتائج الأفكار ص٣٠٦، ولسان العرب(عوذ).

خلاف مقتضى الظاهر تحت مسمى الالتفات أو ما يقرب منه[1]: وهو نقل الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر، كقوله تعالى:﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧]، فانتقل من خطاب الجمع:﴿ وَأَقِيمُواْ ﴾إلى خطاب الإفراد:﴿وَبَشِّرِ ﴾، والانتقال بالكلام عما يقتضيه سياق الحديث وما يترقبه السامع ، من صيغة إلى أخرى، فيه إيقاظ للانتباه، وإثارة للاشتياق إلى هذا الكلام الجديد، كما أن فيه تطرية للكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال ؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات، والسآمة من الاستمرار على منوال واحد.

وأرى أن البيان النبوي قد خالف السياق هنا من التعبير بصيغة الجمع إلى صيغة الإفراد، وذلك للفت انتباه السامع إلى أهمية هذا المقطع بالنسبة للمسافر، والذي يختص بالاستعاذة بالله من أضرار السفر، بالإضافة إلى الانتقال من التعميم إلى التخصيص ؛ حيث إن طلب الدعاء جاء بالجمع لإفادة الإحاطة والشمول، ولإشراك جميع الأمة معه في هذا التوفيق لطاعة الخالق، أما مشاقُّ السفر والتي استعاذ منها بصيغة الإفراد، فهي من الأمور التي تخص المسافر وحده، ويحصل فيها التفاوت من إنسان لآخر، فما يعدّه زيد شاقاً ربما يكون عند عمرو غير ذلك، والعكس صحيح، فلما كانت هذه الأمور مما يحدث فيها التفاوت؛ نظراً لارتباطها بالشخص المسافر نفسه ناسب التعبير عنها بالإفراد دون الجمع.

ثم نلحظ في هذا المقطع أيضاً . وهو مقطع الاستعاذة من المضرات . أنه أتى بعد طلب الدعاء، مع أن العادة تقتضي تقديم طلب دفع المضرة على طلب جلب المنفعة، فما السر وراء ذلك؟ أقول: إن هذا يتناسب مع حال المسافر وتحركه في رحلته؛ حيث إنه ليس متلبساً بعدُ بالمضرة حتى يقدمها، ولذا بدأ بطلب المنفعة متمثلة في طلب الدعاء والرجاء، فإذا ما تلبَّس بالسفر أتى بالاستعاذة بعد ذلك.

والمقصود بـ " وَعْثَاءِ السَّفَرِ "[2]: الشدة والمشقة والتعب. لقد استعاذ . ﷺ . بالله من كل المصائب والبلايا، والشدائد والمعوقات التي قد تصادف المسافر في رحلته، وأولها تسهيل السير في طريقه، ليصل إلى غايته في يسر وسهولة في أقصر وقت، وكان في اختيار

١ ـ ينظر: الإتقان٢٥٨/٣.
٢ ـ يُقال: وَعِثَ الطريقُ وَعْثاً، ووَعُثَ وُعُوثَةً كلاهما: لانَ فصار كالوَعْثِ، وأَوْعَثَ وَقَع في الوَعْثِ.والوَعْثُ: كلُّ لَيِّنٍ سهل.والوَعْثُ: المكان السَّهْلُ الكثير الدَّهِسُ تغيب فيه الأَقدام. والوَعَثُ: رِقَّةُ التراب ورخاوة الأَرض تغيب فيه قوائم الدواب.والوَعْثاءُ ما غابت فيه الحوافِرُ والأَخفافُ من الرمل الرقيق والدَّهاسِ من الحصى الصغار وشبهه. وأَصل الوَعْثاء من الوَعْثِ وهو: الدَّهِسُ من الرمال الرقيقة والمشي يشتدّ فيه على صاحبه، فجعل مَثَلاً لكل ما يشق على صاحبه. راجع: اللسان مادة(وعث).

كلمة" الوعثاء" بما تحمله من معانٍ؛ تجسيداً لمدى الصعوبة والشدائد التي يلاقيها المسافر في سيره، وتصويراً للمعاناة الجسدية والنفسية له، إذ كيف يكون حال من يمشي في رمل ناعم تغيب فيه أقدامه، أو قوائم مركوبه؟ لا شك أنه يعاني أشد المعاناة في سيره، ولا يكاد يتقدم فيه إلا ببطء شديد.

وعن أثر دلالة التعبير بهذه الكلمة يحدثنا صاحب كتاب " المجازات النبوية" فيقول: في قوله ﷺ . "مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ"مجاز، وهي فعلاء من الوَعْث، وهو ضد الجَدَد[وهو الطريق السالك السهل المنبسط الذي لا وعورة فيه]، والسير فيه يَشُقّ على القدم والمِنْسِمِ[وهو خف البعير،أي: أنه شاق على الإنسان والحيوان]، فجعل عليه الصلاة والسلام طول السفر وشُقّته وتكاليفه ومشقته بمنزلة الوَعْثاء التي قاطعها تَعِبٌ، والساري فيها نَصِبٌ"[1].

أرأيت كيف جسمت تلك الكلمة" وَعْثاء" . المستعملة في: الطريق الوعر . مشاق السفر ومتاعبه؟! حيث شُبهت المشقات والمتاعب بالوعورة في الطريق، بجامع ما يتحمله المسافر منهما، واستعمل لفظ المشبه به في المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية[2].

ثم تأمل استعاذته . ﷺ . بعد ذلك من" كَآبَةِ المَنْظَرِ[3]" أي: من كل منظر يعقب النظر إليه شدة حزن أوهم أو غم، إنه تعبير فيه كناية عن مدى الانكسار النفسي للمسافر عندما لا تقضى حاجته، أو يذهب ماله، أو تصبه آفة، أو يرى في سفره عموماً ما لا يسره، فيترتب على ذلك زيادة همه وغمه ، وتوتره النفسي. ولذا "قيل: السفر سقر، وأنشد صاحب فتح القدير:

وإن اغتراب المرء من غير خلة ولا همة يسمو بها لعجيب
وحسب الفتى ذُلاً وإن أدرك العلا ونال الثريا أن يُقال غريب[4]

ثم يختم البيان النبوي هذا المقطع، مقطع الاستعاذة بقوله:" وَسُوءِ المُنْقَلَبِ في المالِ والأَهْلِ[5]"، إنه يستعيذ بالله من أن يرجع من سفره، ويعود إلى بيته فيجد ما يسوؤه سماعه

١ ـ المجازات النبوية ص١٤١ للشريف الرضي.وتعليق محققه د/ طه الزيني.ط: مؤسسة الحلبي ـ القاهرة:١٣٨٧هـ .

٢ ـ المرجع السابق: حاشية رقم ص ١٤٣.

٣ ـ الكآبةُ: تَغَيُّر النَّفْس بالانكسار مِن شِدَّةِ الهمِّ والحُزْن وسُوءُ الحالِ. يُقال:كَئِبَ يَكْأَبُ كَأْباً وكأْبةً وكآبة كرَأُفَةٍ ورَآفة، واكْتَأَبَ اكتِئاباً: حَزِنَ واغْتَمَّ وانكسر فهو كَئِبٌ وكَئِيبٌ.وقيل: الكآبةُ: أَشَدُّ الحُزْن. راجع: اللسان مادة (كأب).

٤ ـ فيض القدير ٤/١٤٠ .

٥ ـ (السوء): نقيض المسَرَّة. يُقال: ساءَهُ يَسُوءُه سَوْءًا وسُوءًا نقيض سَرَّه. وأَساءَ الرجلُ إساءة خلافُ أَحسَن، والسُّوءُ اسم جامع للآفات والداءِ.والسُّوء: كل ما يغم الإنسان وكل ما يقبح. (المُنْقَلَبُ): المَرجع. والانْقِلابُ: الرجوعُ مطلقاً. يُقال: قَلَب الشَيْءَ يَقْلِبُه قَلْباً. وقد انْقَلَب وقَلَّبه: حَوَّله ظَهْراً لبَطْنٍ. والقَلْبُ: تَحْويلُ الشيءِ عن وجهه.

في ماله أو أهله، أو يرى فيهما ما يحزنه. إن سعادته تكتمل عندما يعود من رحلته فيجد ما يسره في ماله الذي خلفه وراءه، ويجد أهله كما تركهم قائمين على طاعة الله، وأنهم على خير وعافية.إن هذه العبارة تُعدُّ كناية عن كل ما يصيب مال المسافر أو أهله من مكروه وسوء، وهي تصور مدى أثر هذا الختام غير السارّ على نفسه، بعد ما لقيه في سفره من عناء ومشقة.

ومن ثَمَّ استعاذ النبي ـ ﷺ ـ من أن" ينقلب من سفره إلى أهله كئيباً حزيناً غير مقضي الحاجة، أو منكوباً ذهب ماله، أو أصابته آفة في سفره، أو يقدم على أهله فيجدهم مرضَى، أو مات منهم بعضهم، أو يرى بعضهم على المعصية، أو ما أشبه ذلك من المكروه"[(١)].

ثم بدا تأثر النبي ـ ﷺ ـ بالقرآن الكريم في هذا المقطع الأخير من الاستعاذة، وذلك حين قدم المال على الأهل، ويتجلى ذلك في قول الله عز وجل:﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ [الفتح/١١].

ونلحظ في مقطع الاستعاذة جميعه، أن البيان النبوي قد رتبه ترتيباً منطقياً متسلسلاً، فبدأ بالاستعاذة من وعثاء السفر، وهو أوَّل ما يتلبَّسُ به المسافر من وعورة الطريق ، وتغير هيئته .كما ورد في الحديث:"ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ..." [(٢)]. وغير ذلك، ثم ثنى بكآبة المنظر، وتكون نتيجة مترتبة على مشاق السفر ومتاعبه، ثم ثلّث بالاستعاذة من سوء العودة إلى موطنه؛ حيث إنها آخر شيء في رحلة سفره.

وفي ختام هذا المحور الثاني من البيان النبوي، ينبغي أن أشير إلى أنه قد ورد في (رياض الصالحين) في نهاية مقطع الاستعاذة، قوله:" وَسُوءِ المُنْقَلَبِ في المالِ والأَهْلِ وَالوَلَدِ"، بزيادة كلمة" الولد"[(٣)]، ثم نسب ذلك إلى الإمام مسلم، وبالرجوع إلى صحيح مسلم لم أجد تلك الزيادة فيه. وعلى كلٍ فليس هناك تعارض في زيادتها؛ لأنها تكون من باب زيادة التفصيل بالإطناب عن طريق عطف الخاص على العام، زيادة في العناية بأمرهم، والاهتمام بشأنهم، ودلالة على عِظَم محبتهم.

والمُنْقَلَبُ يكون مكاناً ويكون مصدراً مثل المُنْصَرَف والمُنْقَلَبُ: مَصِيرُ العِبادِ إلى الآخرة. والمُنْقَلَب: أَي: الانْقِلاب من السفر والعَوْدِ إلى الوَطَن.راجع اللسان مادتي(سوأ ـ وقلب).

١ ـ عون المعبود ١٨٥/٧، وتحفة الأحوذي٢٨١/٩، وحاشية السندي على النسائي ٢٧٢/٨.

٢ ـ الحديث في: صحيح مسلم٧٠٣/٢ باب قبول الصدقة(١٠١٥)، ومسند الإمام أحمد ٣٢٨/٢ حديث رقم(٨٣٣٠).

٣ ـ راجع: رياض الصالحين ص٣٧٩، حديث رقم (٩٧٩)، وصحيح مسلم: مجلد/٥ج٩٣/٩ كتاب الحج ـ باب/ ٧٥ ـ ما يقول إذا ركب دابة للسفر، حديث رقم/ ٤٢٥ ـ (١٣٤٢).

وأما المحور الثالث والأخير: وهو ملازمة العبد للتوبة في جميع أحواله، فيتضح ذلك في ختام هذا القبس النبوي الشريف عند قوله:" وإذا رَجَع قَالَهُنَّ وزَادَ فِيهِنَّ:" آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ"[1].

في هذا المحور يخبرنا المصطفى . ﷺ . بأن المسافر ينبغي أن يكون في ذكر دائم لله عز وجل ، وأن حاله في ذلك عند رجوعه لا يقل أهمية عن حاله عند ابتداء سفره، إن المسافر عندما يشرع في الرجوع إلى وطنه، فعليه أن يفعل مثل ما فعل في حال بدء ذهابه في رحلته، أي أنه يطلب من الله . جل وعلا . العون على التوفيق في طاعته، وأن يدفع عنه مشاق السفر وآلامه، وأن ييسر له العودة إلى أهله في أقصر وقت، حتى يكون عوداً حميداً ليس فيه عناء ولا نصب، ولا بلاء ولا تعب،بالإضافة إلى ذلك وحتى تتم سعادته وتكتمل أن يرجع فيرى كل ما يسره في ماله وأهله،فيجد ماله على حاله كما تركه ،فلم يعتد عليه ظالم، أو يُصب بآفة احتراق أو غيرها، كما يرى أهله على خير لم يطمع فيهم فاجر، ولم يصيبهم أي مكروه أو سوء.

ثم بالإضافة إلى كل ذلك يزيد تلك الكلمات:" آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ"، والتي يعلن فيها بأنه عائد إلى وطنه بعد أداء مهمته، وقضاء رحلته، ومع عودته وفرحته، فهو قائم على طاعة خالقه، متلبس بها، مستمر عليها، إنه يصرح في تلك الكلمات بأنه إذا كان قد وقع منه تقصير في عبادته لربه وهو في حال سفره، فهو يعلن توبته وندمه على ما حدث من ذلك.

ثم يختمها بهذا الثناء العظيم، والشكر الجزيل لله رب العالمين، على قضائه وقدره، وتوفيقه له إلى ما يحبه ويرضى، إن حمد العبد لخالقه، و"حمده . ﷺ . له تعالى؛ لِمَا

---

١ ـ معنى(آيِبُونَ) أي:رَاجِعُون.يُقال: آبَ إلى الشيءِ، يَؤُوبُ أَوْباً وإياباً وأَوْبَةً:رَجَعَ. والأَوْبُ: الرُّجُوعُ. وآبَ الغائبُ يَؤُوبُ مآباً: إذا رَجَع. وكُلُّ شيء رجَعَ إلى مَكانِه فقد:آبَ يَؤُوبُ إياباً: إذا رَجَع.وآيِبُونَ: جمع سلامة لآيب، وكل اسم فاعل من آب فهو: آيب،بالياء.وقيل: آئِبٌ بالهمز، وهو القياس.ومعنى(تائبون):أي: إلَى اللهِ من الذنوب والمَعَاصِي. يُقال:تابَ إلى اللهِ يَتُوبُ، تَوْباً وتَوْبةً، ومَتاباً: أَنابَ ورَجَعَ عن المَعْصيةِ إلى الطاعةِ.وتابَ اللهُ عليه: وفَّقَه للتوبة.وأَصلُ تابَ: عادَ إلى اللهِ ورَجَعَ وأَنابَ، وتابَ اللهُ عليه أَي: عادَ عليه بالمَغْفِرة. ومعنى(عَابِدُونَ):أي:طائِعُون لِلَّهِ مع خُضُوعِنَا لَهُ. والعِبادَةُ: الطاعة.والعبادةِ في اللغة: الطاعةُ مع الخُضُوع، ومنه: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ: إذا كان مذلاً بكثرة الوطءِ. وأَصل العُبودِيَّة: الخُضوع والتذلُّل. والتَّعَبُّدُ: التَّنَسُّكُ.ومعنى(حَامِدُونَ):أَي: شَاكِرُونَ اللهَ عَلى نِعَمِهِ:يُقال:حَمِده: حمدًا: أثنى عليه، وحمد فلانًا: جزاه، وقضى حقه. وحمد الشيء: رضي عنه، وارتاح إليه. وحمدُ الله: الثناءُ عليه، ويكون شكراً لنعمه التي شملت الكل، والحمد أعم من الشكر؛ لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته، كما أن الشكر لا يكون إلا ثناء لِيد أوليتها، والحمد قد يكون شكراً للصنيعة، ويكون ابتداء للثناء على الرجل. راجع اللسان والمعجم الوسيط مواد(أوب ـ توب ـ عبد ـ حمد) .

يستوجبه تعالى من ذلك، ولتمام نعمته بقفوله ومن معه سالمين ظاهرين مبلغين الأمل، عزيز الجانب، عائداً له، تائباً مما لا يرضاه"[1].

لكن هل يأتي المسافر بهذه الزيادة عند الشروع في العودة في أول الدعاء أم في آخره؟ يقول ابن علان:"كُلٌّ محتمل"[2]. وأرى أن الأَوْلى أن يأتي بها في آخر الدعاء، حتى يكون في تقديمه للثناء على الله وتعظيمه وتقديسه سبب لقبول الأعمال، وإجابة الدعاء.

وإذا أنعمنا النظر في نظم هذا المحور فسنجد أنه صُدِّر بقوله:" آيِبُونَ" بحذف المسند إليه؛ إذ التقدير"نحن من السفر راجعون"، وذكره بصيغة الجمع، ولم يذكره بالإفراد كما كان في مقطع الاستعاذة. فما السر وراء ذلك؟ أقول:إن نشوة الفرح، واللهفة بالعودة بالسلامة من السفر إلى الوطن، مثل هذا المقام لا يحتاج المتكلم فيه إلى إطالة الكلام، وبسط الحديث، وإنما يُؤثِر الإيجاز اكتفاء بالقرينة الدالة عليه. إنه بحذف المسند إليه(نحن) في هذا المقام يكون فيه مراعاة للحالة النفسية التي يكون عليها الغريب العائد إلى أحبابه.

أما عن الانتقال من التعبير بصيغة الإفراد في مقطع الاستعاذة السابق، إلى التعبير بصيغة الجمع هنا(آيِبُونَ تَائِبُونَ...)إلى آخره، فكما أشرنا من قبل بأن في ذلك انتقالاً من التخصيص إلى التعميم، بعكس المقام السابق، وأن هذا المحور فيه دلالة على الاستمرارية على التوبة والعبادة، فأراد ﷺ أن يشرك معه غيره في ذلك سواء كانوا رفقاء في رحلته أم غير رفقاء له.فمقتضى ذلك أن المقام إذا كان يحث على الطاعة والإنابة، كان تعميم الكلام هو الأَوْلى ، أما إذا كان غير ذلك، فالتخصيص يكون هو الأَنْسب.

ثم نلحظ أيضاً في اختيار هذه الكلمة" آيِبُونَ" دون مرادفها "راجعون"؛ ليحدث ذلك الاختيار نغماً صوتياً مع الكلمات الآتية بعدها" تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ"، هذا الانسجام الصوتي بين تلك الكلمات يتناغم تماماً مع مقام السعادة والفرح اللذين يشعر بهما المسافر عند عودته من غربته، كما يدل هذا الاختيار على وجود السجع في البيان النبوي، ولكنه" يُعدّ مجلوباً بطبيعة البيان نفسه، وهو صدى الوزن الداخلي، وصوته المعبر عنه، وإنا واجدوه في كثير من المكملات وأجزاء الجمل، فضلاً عن وجوده في الجمل، ووقوعه بين المفردات... إن هذه المفردات المتوالية تصلح أن تكون لحناً شجياً؛ إذ إنها

١ ـ إكمال المعلم شرح صحيح مسلم ٤/ ٢٦٣ للقاضي عياض.
٢ ـ دليل الفالحين ٦/ ١٤٢.

تصور أفراح النفس بالعودة الظافرة بالفلاح، ويُسمِّى مثل ذلك البديعيون" المماثلة[1]"، ولو لم تقفِ الكلمات قافية واحدة لمجرد حصولها على الوزن المتماثل"[2].

ثم نلحظ دلالة هذا الفصل بين تلك الأخبار" تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ"، إنها لتدل دلالة واضحة على تلبس المسافر بهذه الأمور كلها، وشدة حرصه على التمسك بكل واحدة منها على حدة، فضلاً عن أنها تكشف للمخاطب عن حال المسافر عند رجوعه، ومدى حرصه على إنابته وعبادته وحمده لربه؛ إذ إنها أخبار متعددة لمبتدأ واحد وهو المسافر، فيكون مثلها في ذلك، مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ... ﴾ الآية،[التوبة: ١١٢].

ثم انظر إلى سر تقديم الجار والمجرور الذي أتى في ختام تلك الكلمات الدقيقة:" لِرَبِّنَا حَامِدُونَ"، تجده أنه قد أفاد القصر، فقصر الحمد على الله . عز وجل . وحده، قصر صفة على موصوف، وفي ذلك أعظم دلالة على أنه لا يستحق أحد الثناء والحمد إلا المنعم سبحانه؛ وذلك"لنعمه العظيمة، وعطاياه الجسيمة، وتسهيل . أمر السفر وتيسيره"[3].

إن البيان النبوي في هذا المحور يؤكد على أن المسافر في حالة عودته، عليه أن يكون أكثر طاعة لله . عز وجل .؛ وذلك لتوفيقه له في رحلة سفره، وحفظه ورعايته، وقضائه لحاجته أحياناً، ومن ثَمَّ لا يكون حال رجوعه في اللجوء إلى الله، والتضرع له والإنابة إليه، أقل أهمية من حال سفره، وجاء التنبيه على ذلك بهذه الكلمات الزائدة على الدعاء في رحلة الذهاب؛ نظراً لأنه قد يقصر في ذلك لانشغاله بأهله وماله في حال عودته.

إنه لمحور رائع جداً ومهمٌّ في هذا البيان المحمَّديِّ، إنه مشهد العودة الذي" يُصور التصميم على حمد الله وعبادته، والتوبة إليه، والرغبة بالسلامة. إن هذا المشهدَ، والمشاهِدَ

١ ـ والمقصود منها:أنها تتشابه مع الموازنة، والموازنة هي: أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية، فإن كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن خص باسم المماثلة، كقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨]. راجع الإيضاح مع البغية٤/٩٩، وشروح التلخيص٤ /٤٥٥، ٤٥٧.
٢ ـ الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص٢٧٨.
٣ ـ فقه الأدعية والأذكار القسم الثالث ص٢٦٦ لعبد الرزاق البدر.ط: الكويت. ط: الأولى: ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

الأخرى التي يُصورها هذا الحديث النبوي نوعٌ من اللوحة الحديثة لنفسِ كل مسافر، سواء أكان مسافراً إلى حج أو إلى غير حج"[١].

وفي ختام هذا القبس النبوي الشريف نلحظ أنه ختم بطلب الدعاء، والاستمرار على الطاعة، كما بدأ بطلب الدعاء والتوفيق في الطاعة والأعمال الصالحة، ففيه: عود على ذي بدء، وهذا ما يسمى عند البلاغيين بـ "رد العجز على الصدر"[٢] ، وهذا المحسن البديعي اللفظي . بالإضافة إلى أنه يكسب الكلام جمالاً وسحراً وبلاغة، وفي هذا من الجمال ما فيه . فإن فيه تماسكاً للكلام وتعاضده وربط آخره بأوله.

وأخيراً أشير هنا إلى أن هذا الحديث النبوي الشريف، بعد أن توقفنا أمام الصور الجزئية التي وردت فيه بالتحليل والتعليق، نستطيع أن نقرر بأن لها أثراً عظيماً، وشأناً كبيراً في رسم الصورة الكلية التي يريد أن يرسمها هنا للمسافر في ذهابه وإيابه، ومن ثَمَّ أقول:إن الصورة الواحدة . في البيان النبوي . تضم شتيتاً من الصور المتناثرة، وقد خضعت إلى نظام من التناسق يؤلف بينها، ويجعل منها خطوطاً ملتحمة لصورة واحدة ذات ملامح وسمات... لقد جاء في الحديث النبوي من الصور الجزئية الرائعة، والتي مما يضاعف من منزلتها في حديث رسول الله . ﷺ . ، أنها سنحت عفو الخاطر في كلامه العادي بين الناس، دون قضاء وقت في تدبيجها، فالأحاديث التي رويت عنه قالها في المسجد، أو في المنزل، أو على قارعة الطريق، مطبوعة غير متكلفة، فإذا حفلت بعد ذلك بأطايب الصور كلية وجزئية فلله ما أروع، وما أبدع! لقد صدرت عن مُبين مُلهَم، واتته الفصاحة فكان سيد البلغاء. [٣]

١ ـ تفسير الحديث النبوي في دروس عصرية ص٢٦٥.
٢ ـ والمراد برد العجز على الصدر في النثر: أن يُجعل أحد اللفظين المُكررَين أو المتجانسَين أو الملحقَين بهما في أول الفقرة، والآخر في آخرها.وفي الشعر: أن يكون أحد اللفظين الموصوفين بأحد الأوصاف السابقة آخر البيت، والآخر: إما في صدر المصراع الأول، أو في حشوه أو في آخره أو في صدر المصراع الثاني. انظر:الإيضاح مع البغية٤/٨٧، وشروح التلخيص ٤/ ٤٣٣.
٣ ـ ينظر: البيان النبوي ص٢٤٢ـ ٢٤٥.د/ محمد رجب البيومي.ط: دار الوفاء ـ المنصورة ـ مصر.ط: الأولى:١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م.

الخاتمة

بعد الانتهاء . بحمد الله وتوفيقه . من دراسة وتحليل دعاء السفر، ظهر لنا كثير من خصائص البيان النبوي، التي جعلته يحتل بين البلغاء والفصحاء المرتبة العالية، والمنزلة السامية، ويتبوأ من أجلها ذرا البيان البشري، وقد تجلت أهم هذه الخصائص في: الألفاظ، والمعاني، والأفكار، والأسلوب. وإليك رصداً لتلك السمات التي تميز بها هذا البيان بإيجاز:

أولاً: من ناحية **الألفاظ**. لقد تميزت ألفاظه من خلال الحديث المذكور بالسلاسة والوضوح، فكلماته مختارة بدقة متناهية، وجاءت معبرة موحية، واضحة جلية، خالية من الغرابة والتقعر، وإن شئت الدليل على ذلك فاقرأ قوله: "الله أكبر، اللهم إنا نسألك، في سفرنا هذا، البر والتقوى..." إلى آخر الحديث.

هذه المفردات وغيرها كلها تشهد وتؤكد على أن ألفاظ البيان النبوي تتميز بأنها . في الأعم الأغلب . مألوفة مأنوسة، إلا إذا اقتضي المقام لفظاً أقل أُلفة فيأتي به النبي . ﷺ . ليناسب حال المخاطب وإفهامه، ولكنه مع ذلك ينأى بألفاظه عن الغريب الوحشي، وعن السوقي المبتذل. كما أن ألفاظه تتميز بالجزالة حين يقتضي المعنى القوة والفخامة، وبالرقة

عندما يتطلب الموقف السهولة والقرب، وفي الحالتين تكون الألفاظ واضحة الدلالة على معانيها،كل كلمة تعبر بدقة عن تمام معناها، مستقرة في مكانها من الجملة من غير نبو ولا اضطراب[١].

ثانياً: من ناحية **المعاني**. عندما ترجع إلى الحديث وتقرأه مرة أخرى؛ ستجد أن معانيه تنثال عليك انثيالاً، وتتدفق إليك تدفقاً منهمراً كالماء في النهر الجاري؛ لأنها تتميز بالثراء، والعمق والجِدَّة، والانسجام والتسلسل، والدقة والإحكام، والترابط وعدم التفكك، والإحاطة والعموم؛ لأنه يخاطب الإنسان في جميع مستوياته، وعلى اختلاف طبقاته، فلا يغمض ولا يحول، ولا ينبهم ولا يشق أو يصعب، وإنما تدير خاطرك في .كلامه . فتراه مشرقاً واضحاً، لا يستعصى على فهم، ولا يتأبى على إدراك، ولا ترى فيه لفظاً وخماً، ولا مستثقلاً صعباً، ولا بعيداً غريباً، ولا تركيباً ملتبساً، ولا غير هذا مما يقف حجراً عثرة في طريق الفكرة، حتى تستقر في أقصى قرارة الفؤاد، وأعمق أغوار النفس. [٢]

أجل! إن معاني الحديث عموماً "تمتاز بالصحة، لحُمتها الصدق، وسداها الحكمة والحق، بعيدة عن الخيال، منزهة عن المواربة والخلابة والتمويه".[٣]

وإن أردت شاهداً على كل خاصية من خصائص تلك المعاني القيّمة الخالدة، فعدْ للحديث مرة ثانية، فستجد ذلك واضحاً جليًّا، وإني أذكّرك بواحدة منها وهي: انسجام تلك المعاني وتسلسلها، وذلك في مقطع الاستعاذة؛ حيث إن البيان النبوي قد رتبه ترتيباً منطقياً متسلسلاً، فبدأ بالاستعاذة من وعثاء السفر، وهو أوَّل ما يتلبَّسُ به المسافر من وعورة الطريق ، وتغير هيئته، وغير ذلك، ثم ثنى بكآبة المنظر، وتكون نتيجة مترتبة على مشاق السفر ومتاعبه، ثم ثلّث بالاستعاذة من سوء العودة إلى موطنه؛ حيث إنها آخر شيء في رحلة سفره. ولولا خشية الإطالة والتكرار لذكرت لك . أيها القارئ الكريم . دليلاً لكل واحدة على حدة.

١ ـ ينظر:بلاغة الرسول ص٢٣.
٢ـ ينظر: قطرات من البلاغة في عهد النبوة ص١٨٤ د/الوصيف هلال الوصيف.ط:١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
٣ ـ من بلاغة الرسول ص٢٣.

ثالثاً: من ناحية **الأفكار**.عندما ننظر في هذا الحديث، نجد مدى دقة الأفكار التي يعالجها، وإحاطتها لكل ما يحتاج إليه المسافر أو يفكر فيه، ثم تسلسل تلك الأفكار وانسجامها، مما يدل دلالة واضحة على وضوح المعنى في ذهن المصطفى . ﷺ . وهضمه للفكرة التي يريد التعبير عنها.

اتضح ذلك جلياً عندما بدأ هذا البيان الرائع بالثناء على الله . عز وجل . ، ثم تقديسه وتنزيهه عن مشابهته للحوادث من الاستواء والركوب وغير ذلك، ثم انتقل إلى طلب الإعانة من الله عز وجل على التوفيق في الطاعة، فقال:"اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى"، ثم بعد ذلك طلب العون من الله . عز وجل . على دفع مشاق السفر وآلامه، فقال:" اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل ..." إلى آخره، ثم يختم ذلك كله بأنه يؤكد على أن السفر لا يمنعه من ملازمته للتوبة إلى الله وحمده وشكره له في جميع أحواله، فقال:"آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون". أرأيت كيف رُتبت أفكار هذا البيان النبوي، وعالجت جميع متطلبات الإنسان في حال سفره مما يتعلق بذاته هو، وكل من كان مسئولا عنه قبل سفره من المال والأهل والولد؟!

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الأفكار النبوية قد بلغت من "الإحكام والانسجام والتسلسل مبلغاً عظيماً، يجعل جزئيات أفكار الحديث الواحد مترابطة محبوكة، يشد بعضها إلى بعض في تماسك متين، فكل جزئية من الفكرة تكون متممة لما قبلها، ممهدة لما بعدها"[1].

رابعاً: من ناحية **الأسلوب**.عندما تتأمل أسلوب هذا القبس النبوي الشريف، ستجد مدى جمال هذا الأسلوب، وروعة تصويره، لقد برز فيه الجزالة والوضوح، والبعد عن التكلف والتصنع، كما تبيّن فيه دقة التصوير واستقصاء المعاني، واتضح ذلك في قوله:" اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من... سوء المنقلب في المال

١ ـ الحديث النبوي ص٥٦ بتصرف.

والأهل والولد"، فلم يترك شيئاً إلا وجعل الله . عز وجل . راعياً له حفيظاً عليه، واستعاذ بالله من أن يرى سوءاً في ماله، وأهله، وأولاده.

وترى الانسجام الصوتي، والموسيقى الرائعة الشجية داخل كلمات هذا الحديث تنادي على نفسها، اقرأ قوله:" آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون"، ومن قبله:"أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل"، تجد أن هذه المقاطع الصوتية تجذب الأذن لسماعها، وتكاد تهز قارئها وسامعها هزاً مؤثراً، يعود عليه بالطمأنينة والسريرة، والنشوة والفرح بعودته ورجوعه إلى وطنه سالماً غانماً، عابداً حامداً لمدبِّر أمره، وميسِّر رحله.

كما تجد الأصالة والجدة في أسلوب هذا البيان البشري الرائق؛ حيث إنه يبرز شخصية النبي . ﷺ . والتي لم يكن في اختيار كلماته وأفكاره مقلداً لغيره، فضلاً عن أن دعاء السفر يُعدُّ أمراً جديداً، فلولا الحديث ما وقفنا على دعاءٍ للمسافر، يتحصن به في حال سفره.

وأيضاً ظهر من خلال هذا الحديث تأثر النبي . ﷺ . بمعلمه الأول، وأستاذه الأوحد، القرآن الكريم،فاقتبس منه بعض آياته، واقتفى نظم عباراته وتراكيبه؛ حيث كان . ﷺ . "إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر، كبر ثلاثاً، ثم قال:"﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف:١٣، ١٤]، ثم قال أيضاً:"اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى"، فجمع بين اللفظتين . البر والتقوى . تأثراً واقتداءً بالقرآن الكريم، الذي قال فيه سبحانه:﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢]، وقال:﴿ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المجادلة: ٩].

كما تجد من ميزات أسلوب الحديث هنا التأكيد على المعاني التي يريد تجسيدها، وجاء ذلك عن طريق تكرار النداء بصيغة" اللهم"، لتأكيد الضراعة، وشدة حاجة الإنسان إلى الله عموماً، وفي حال السفر خصوصاً؛ ليحفظه ويكلأه بعنايته ورعايته.

ثم كان من أهم خصوصية أسلوب هذا البيان النبوي الشريف: الإيجاز.وهذه السمة قد أشار إليها أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء في قوله:" وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ".[1] وجوامع الكلم عبارة عن جمل دقيقة موجزة، تتضمن كل جملة منها معاني كثيرة، مع وفائها بالمعنى الذي تضمنته[2]. وإذا أنعمنا النظر في الحديث وجدنا أن كل جملة من الجمل الواردة فيه، تحمل بين طياتها كثيراً من المعاني الغزيرة، والدلالات الوفيرة، وتبيّن لنا ذلك آنفاً من خلال تحليل تلك الجمل من مثل قوله:" البر والتقوى، من العمل ما ترضى، هوّن علينا سفرنا هذا، اطو عنا بعده، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر..." إلى آخر الحديث.

إن تلك الخصوصيات لأسلوب البيان النبوي في حديث دعاء السفر، لتدل دلالة واضحة على أن أسلوبه ـ ﷺ ـ أسلوب سهل" لا تعقيد فيه ولا التواء، آخذ بحظه الوفير من البيان، مُوجز حيث لا يحمد إلا الإيجاز، مبسوط حين يقتضي المقام البسط، فطريٌّ مطبوعٌ".[3]

كما أنها تؤكد على أنه أبلغ الأساليب في لغة الضاد" وأشدها وأحكمها، مما لا يضطرب به الضعف، ولا تزايله الحكمة، ولا تخذله الروية، ولا يباينه الصواب، بل يخرج رصيناً غير متهافت، متسقاً غير متفاوت، لا يغلب على النفس التي خرج منها، بل تغلب عليه، ولا تسترسل به المخيلة، بل يضبطه العقل، ولا يتوثب به الهاجس، بل يحكمه الرأي، ولا يتدافع من جهاته، ولا يتعارض من جوانبه، بل تراه على استواء واحدٍ في شدة وقوة، واندماج وتوفيق".[4]

تلك هي أهم الخصائص التي تميز بها البيان النبوي الشريف، والتي استنبطناها من خلال أحد أحاديثه التي وردت واشتهرت في دعاء السفر.

١ ـ الحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده ٤٩٢/١٣ برقم(٨١٥٠).
٢ ـ راجع: العمدة لابن رشيق٤٠١/١، والمثل السائر ٦٣/١.
٣ ـ من بلاغة الرسول ص٢٣.
٤ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٢٩١.

هذا، والله أسأل أن يوفقنا جميعاً إلى اتباع حبيبه، والاقتداء بهديه، والعون على تطبيق سنته، وأن يرزقنا شفاعته، وأن يحشرنا في زمرته، وأن يسقينا بيده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبداً. إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله أولاً وآخراً. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباحث

فهرس المصادر والمراجع

يأتي على رأسها: القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم.ط: مكتبة التراث . القاهرة ط: الثالثة: ١٤٠٥هـ . ١٩٨٥م.

٢ـ الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار لأبي عمر يوسف بن عبد الله القرطبي. تحقيق/ سالم محمد عطا، ومحمد علي معوض. دار الكتب العلمية . بيروت. ط: ٢٠٠٠م.

٣ـ الإيضاح مع البغية تحقيق/ عبد المتعال الصعيدي، ط: مكتبة الآداب . القاهرة،ط: الرابعة. بدون تاريخ.

٤ـ البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي.تحقيق/أحمد أمين، السد صقر.ط:لجنة التأليف والترجمة والنشر.ط: الأولى:١٣٧٣هـ.١٩٥٣م

٥. بغية الإيضاح/ عبد المتعال الصعيدي.ط: مكتبة الآداب . القاهرة. بدون.

٦ـ البيان والتبيين للجاحظ. تحقيق وشرح/ عبد السلام محمد هارون.ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة . مصر.ط:١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م.

٧ـ البيان النبوي.د/ محمد رجب البيومي.ط: دار الوفاء . المنصورة . مصر.ط: الأولى:١٤٠٧هـ .١٩٨٧م.

٨ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد بن عبد الرحيم المباركفوري .ط: دار الكتب العلمية . بيروت.

٩. تفسير الحديث النبوي في دروس عصرية.د/ أسعد أحمد علي.ط: دار الرائد العربي.بيروت.ط: الثانية:١٤٠٧هـ .١٩٨٧م.

١٠ـ تفسير الكشاف للزمخشري، تحقيق/ عبد الرزاق المهدي. ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.ط: الثانية: ١٤٢١هـ . ٢٠٠١م.

١١ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد الله القرطبي.تحقيق/ مصطفى أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري. ط: مؤسسة قرطبة. ط:١٤٢١هـ.٢٠٠١م.

١٢. جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام لابن القيم الجوزية، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر الأرنؤوط. ط: دار العروبة – الكويت.ط: الثانية: ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م.

١٣ـ حاشية السندي على النسائي/ أبو الحسن السندي. تحقيق / عبد الفتاح أبو غدة.ط: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب . سورية.ط: الثانية : ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.

١٤ـ الحديث النبوي من الوجهة البلاغية /عز الدين على السيد.ط: دار الطباعة المحمدية . القاهرة. ط:١٣٩٢هـ. ١٩٧٣م.

١٥ـ الدعاء للطبراني. تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا.ط: دار الكتب العلمية – بيروت.ط: الأولى:١٤١٣هـ.

١٦ـ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمد بن علان الصديقي الشافعي.ط: دار الكتاب العربي.بيروت.

١٧. ديوان أبي الطيب المتنبي.ط: دار صادر . بيروت.ط: الثانية: ١٤٢٤هـ. ٢٠٠٣م.

١٨. رياض الصالحين/ الإمام النووي. تحقيق/ جماعة من العلماء.ط:المكتب الإسلامي . بيروت. ط: الأولى:١٤١٢هـ.١٩٩٢م.

١٩ـ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د/ مصطفى السباعي.ط: مكتبة دار العروبة . مصر.ط: الأولى: ١٣٨٠هـ.١٩٦١م.

٢٠ـ سنن أبي داود. تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد.ط: دار الكتاب العربي ـ بيروت. بدون.

٢١. سنن ابن ماجه. تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي.ط: دار الفكر – بيروت. بدون.

٢٢. سنن الترمذي .تحقيق/ أحمد محمد شاكر وآخرون، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت. بدون.

٢٣. السنن الكبرى للبيهقي.ط: مجلس دائرة المعارف . الهند.ط : الأولى:١٣٤٤ هـ

٢٤. سنن النسائي. تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة.ط: مكتب المطبوعات الإسلامية – سورية. ط: الثانية ١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م.

٢٥. شروح التلخيص. ط:مؤسسة دار البيان العربي . بيروت.ط: الرابعة:١٤١٢هـ.١٩٩٢م.

٢٦. الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض. ط: دار الكتب العلمية . بيروت. بدون.

٢٧ـ صحيح مسلم.تحقيق/محمد فؤاد عبد الباقي.ط: دار الكتب العلمية . بيروت.ط: الثانية: ١٤٢٤هـ. ٢٠٠٣م.

٢٨. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني. تحقيق د/ صلاح الدين الهواري، أ/ هدى عودة. ط: دار ومكتبة الهلال . بيروت. ط: الأولى: ١٤٢٢هـ . ٢٠٠٢م.

٢٩. عون المعبود شرح سنن أبي داود/ محمد شمس الحق العظيم آبادي . ط:دار الكتب العلمية – بيروت.ط: الطبعة الثانية:١٤١٥هـ .

٣٠. فقه الأدعية والأذكار . عمل اليوم والليلة . القسم الثالث/ عبد الرزاق البدر.ط: الكويت. ط: الأولى: ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م.

٣١ ـ فيض القدير لعبد الرءوف المناوي،تحقيق/ماجد الحموي.ط: دار الكتب العلمية . بيروت.ط: الأولى: ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م.

٣٢. قطرات من البلاغة في عهد النبوة د/الصيف هلال الوصيف.ط:١٤١٣هـ . ١٩٩٣م.

٣٣. لسان العرب ط:دار صادر . بيروت.ط: الأولى:١٤٢٣هـ .٢٠٠٢م.

٣٤. المثل السائر لابن الأثير. تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع ونشر: المكتبة العصرية . بيروت ، ط: ١٩٩٥م.

٣٥. المجازات النبوية للشريف الرضي.تحقيق د/ طه الزيني.ط: مؤسسة الحلبي . القاهرة:١٣٨٧هـ.

٣٦ـ مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء لأحمد بن محمد الشمني. وهو مطبوع مع كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض. ط: دار الكتب العلمية . بيروت. بدون.

٣٧ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل.تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وآخرون ط: مؤسسة الرسالة.ط: الثانية: ١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م.

٣٨. مسند الطيالسي.لأبي داود الفارسي البصري الطيالسي. دار المعرفة – بيروت. بدون.

٣٩. المعجم الوسيط/ إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات وآخرين . تحقيق / مجمع اللغة العربية. ط: دار الدعوة. بدون.

٤٠. الموطأ للإمام مالك برواية يحيى الليثي. تحقيق /محمد فؤاد عبد الباقي.ط: دار إحياء التراث العربي – القاهرة. بدون.

٤١ـ نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار لأبي العون محمد السفاريني ط: دار الصميعي . الرياض . السعودية. ط: الأولى:١٤١٦هـ . ١٩٩٦م.

٤٢. وحي الرسالة لأحمد حسن الزيات.ط: مكتبة نهضة مصر.ط: الثانية: ١٣٧٥هـ. ١٩٥٦م.

٤٣. وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي.ط: دار المعارف . مصر.ط:١٣٩١هـ.١٩٧٢م.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٨١٣
المبحث الأول: الجانب النظري، ويتضمن النقاط الآتية:
المقصود بالبيان النبوي. ٨١٨
فصاحة الرسول ﷺ. ٨٢٠
بلاغة النبي ﷺ ٨٢٢
أسباب تفوقها. ٨٢٢
السبب الأول: التدبير الإلهي له ﷺ. ٨٢٣
الثاني: نشأته اللغوية. ٨٢٣
الثالث: موهبته . ﷺ . الفذة. ٨٢٥
الرابع: تأثره . ﷺ . بالقرآن الكريم. ٨٢٥
المبحث الثاني: الجانب التطبيقي، ويحتوي على: ٨٢٧
عرض نص حديث دعاء السفر، وتخريجه. ٨٢٨
المحاور التي يدور حولها الحديث، وهي ثلاثة محاور:
المحور الأول: طلب الإعانة من الله عز وجل على التوفيق في الطاعة. ٨٢٩
الثاني: طلب الإعانة من الله عز وجل على دفع مشاق السفر وآلامه. ٨٣٧
الثالث: ملازمة العبد للتوبة في جميع أحواله. ٨٤٣
الخاتمة ٨٤٨
أهم الخصائص التي تميز بها البيان النبوي من خلال الحديث محل الدراسة.
أولاً: من ناحية الألفاظ. ٨٤٨
ثانياً: من ناحية: المعاني. ٨٤٨
ثالثاً: من ناحية الأفكار. ٨٤٩
رابعاً: من ناحية الأسلوب. ٨٥٠
فهرس المصادر والمراجع. ٨٥٤
فهرس الموضوعات. ٨٥٨